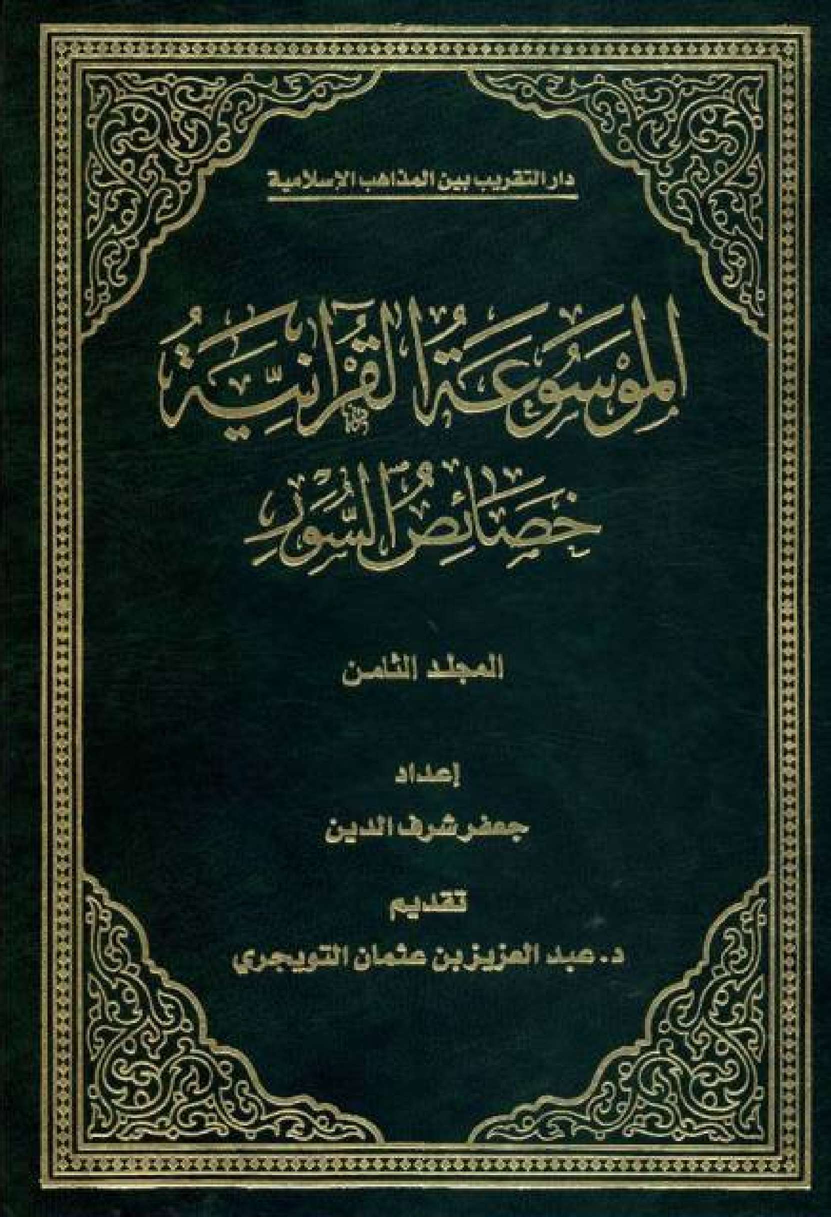

دار التقريب بين المذاهب الإسلامية
الموسوعة القرآنية
خصائص السور
المجلد الثامن
إعداد
جعفر شرف الدين
تقديم
د. عبد العزيز بن عثمان التويجري



الموسوعة القرآنية
خصائص السُّوَر

دار التقريب بين المذاهب الإسلامية

الموسوعة القرآنية

خصائص السور

المجلد الثامن

إعداد

جعفر شرف الدين

تقديم

د. عبد العزيز بن عثمان التويجري

مراجعة

الأستاذ أحمد حاطوم

د. محمد توفيق أبو علي

دار التقريب
بين المذاهب الإسلامية

شارع جان دارك ـ بناية الوهاد
ص.ب ٨٣٧٥ ـ بيروت ـ لبنان
تلفون ٣٥٠٧٢١/٢ (٠١)
تلفون + فاكس: ٦٠٢٠٢٩ ـ ٣٥٣٠٠٠ (٩٦١١)
e-mail: allprints@netgate.com.lb

الطبعة الأولى
١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩ م

الإخراج الفني: زاهية عاصي


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

سورة غَافر



٤٠


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المبحث الأول

أهداف سورة «غافر»(*)

سورة «غافر» سورة مكية، نزلت في الفترة الأخيرة من حياة المسلمين في مكة، بعد الإسراء وقبيل الهجرة. وآياتها ٨٥ آية نزلت بعد سورة «الزمر».

أربعة أسماء: تسمى هذه السورة سورة «غافر»، لقوله تعالى في أوّلها: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الآية ٣].

وتُسمى سورة «المؤمن» لاشتمالها على حديث مؤمن آل فرعون «واسمه خربيل» في قوله تعالى:

﴿وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ [الآية ٢٨].

وسورة «الطَّوْل»، لقوله تعالى: ﴿ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ٣﴾.

وتُسمى «حم الأولى» لأنها السورة الأولى في الحواميم.

روح السورة

الروح الساري في سورة «غافر» هو الصراع الدائر بين الحق والباطل، والإيمان والكفر، والدعوة والتكذيب، وأخيراً قضية العلو في الأرض والتجبّر بغير الحق، وبأس الله الذي يأخذ المتجبّرين. وفي ثنايا أهداف السورة الأصلية نجد أنها تُلِمّ بموقف المؤمنين المهتدين الطائعين، ونصْر الله إيّاهم، واستغفارِ الملائكة لهم، واستجابة الله

(*) انتقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

لدعائهم، وما ينتظرهم في الآخرة من نعيم.

وجو السورة كله، من ثَمَّ، كأنه جو معركة، وهي المعركة بين الإيمان والطغيان، بين الهدى والضلال، بين المتكبرين المتجبّرين في الأرض وبأس الله الذي يأخذهم بالدمار والتنكيل. وتتنسّم، خلال هذا الجو، نسمات الرحمة والرضوان حين يجيء ذكر المؤمنين.

ويتمثل روح السورة في عرض مصارع الغابرين، كما يتمثل في عرض مشاهد القيامة، وهذه وتلك تتناثر في سياق السورة وتتكرر بشكل ظاهر، وتعرض في صورها العنيفة المرهوبة المخيفة. ومنذ بداية السورة إلى نهايتها نجد آيات تَلْمُسُ القلب، وتهزُّ الوجدان، وتعصف بكيان المكذّبين، وقد ترقّ آيات السورة فتتحول إلى لمسات وإيقاعات تمس القلب برفق، وهي تعرض صفات الله تعالى، غافر الذنب وقابل التوب، ثم تصف حَمَلَة العرش، وهم يدعون ربّهم ليتكرّم على عباده المؤمنين؛ ثم تُعْرَض الآيات الكونية والآيات الكامنة في النفس البشرية.

موضوعات السورة

يمكننا أن نقسم سورة غافر بحسب موضوعاتها إلى أربعة فصول:

الفصل الأول:
صفات الله

تبدأ الآيات، من ٤ إلى ٢٠، بعرض افتتاحية السورة، وبيان أن الكتاب منزّل من عند الله سبحانه.

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ للمؤمنين التائبين، وهو: ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ للعصاة المذنبين.

ثم تقرر أن الوجود كلّه مُسَلِّم مستسلم لله جلّ وعلا، وأنه لا يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فيشذّون عن سائر الوجود بهذا الجدال، ومن ثَمّ فهم لا يستحقون أن يأبه لهم رسول الله (ص)، مهما تقلّبوا في الخير والمتاع، فإنّما هم صائرون إلى ما صارت إليه أحزاب المكذّبين قبلهم وقد أخذهم الله أخذاً، بعقاب يستحق العجب والإعجاب، ومع الأخذ في الدنيا، فإن عذاب الآخرة ينتظرهم هناك. ذلك بينما حملة العرش ومن حوله يعلنون إيمانهم بربّهم، ويتوجهون

إليه بالعبادة، ويستغفرون للذين آمنوا من أهل الأرض، ويدعون لهم بالمغفرة والنعيم والفلاح. وفي الوقت ذاته تعرض مشهد الكافرين وهم ينادون:

﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ (١٠)﴾.

وهم في موقف المذلة والانكسار يقرون بذنبهم، ويعترفون بربهم فلا ينفعهم الاعتراف والإقرار، ومن هذا الموقف بين يدي الله في الآخرة، يعود السياق ليعرض أمام الناس مظاهر أَنْعُم الله عليهم، ليأخذ بأيديهم إلى طريق الإيمان بالله.

﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ (١٤) رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ (١٥)﴾.

ويعرض السياق مشهد ذلك اليوم في صورة حية مؤثرة: فقد برز الجميع أمام الله جلّ وعلا، العالم بالظواهر والبواطن؛ وفي المشهد تبلغ الروح الحلقوم، وتذهب صولة الظالمين والطغاة، فلا يجدون حميماً ولا شفيعاً يطاع في شفاعته؛ لقد أصبح الملك والأمر والقضاء لله الواحد القهار.

الفصل الثاني:
رجل مؤمن يجاهد بالكلمة

يستغرق الفصل الثاني الآيات [٢١ ـ ٥٥].

ويبدأ بلفت المشركين إلى ما أصاب المكذِّبين قبلهم؛ ثم يعرض، من قصة موسى (ع) مع فرعون وهامان وقارون، جانباً يمثل موقف الطغاة من دعوة الحق، ويعرض فيها حلقة جديدة لم تعرض في قصة موسى من قبل، ولا تعرض إلا في هذه السورة، وهي حلقة ظهور رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه، يدافع عن موسى (ع)، ويصدع بكلمة الحق والإيمان في تلطّف وحذر في أول الأمر، ثم في صراحة ووضوح في النهاية، ويعرض في جدله مع فرعون حجج الحق وبراهينه القوية الناصعة، ويحذرهم يوم القيامة، ويمثل لهم بعض مشاهده في أسلوب مؤثر، ويذكّرهم بموقفهم وموقف الأجيال قبلهم من يوسف (ع) ورسالته؛ ويستطرد السياق بالقصة حتى يصل طرفها بالآخرة فإذا هم هناك، وإذا هم

يتحاجّون في النار، وإذا حوار بين الضعفاء والذين استَكْبَرُوا، وحوار لهم جميعاً مع خَزَنَةِ جهنّم يطلبون فيه الخلاص، ولاتَ حينَ خلاص؛ وفي ظل هذا المشهد يوضح الحق سبحانه أن العاقبة للمرسلين في الدنيا ويوم القيامة، فقد نصر الله موسى رغم جبروت فرعون؛ ثم يدعو الرسول الأمين إلى الصبر والثقة بوعد الله الحق، والتوجه إلى الله بالتسبيح والحمد والاستغفار.

الفصل الثالث:
الترغيب والترهيب

يستغرق الفصل الثالث من الآية [٥٦ ـ ٧٧] ويبدأ بتقرير أن الذين يجادلون في آيات الله بغير حجة ولا برهان إنما يدفعهم إلى هذا كِبْرٌ في نفوسهم عن الحق، وهم أصغر وأضأل من هذا الكِبْر؛ ويوجّه القلوب حينئذ إلى هذا الوجود الكبير الذي خلقه الله جلت قدرته؛ وهذا الوجود أكبر من الناس جميعاً، لعلّ المتكبّرين يتصاغرون أمام عظمة خلق الله، وتتفتح بصيرتهم فلا يكونون عمياً:

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

ويذكّر هذا الفصل الناس بمجيء الساعة، ثم يفتح الباب أمامهم إلى دعاء الله سبحانه والاستجابة لأمره؛ ويبيّن لهم أنّ الذين يستكبرون عن عبادته تعالى سيدخلون جهنّم أذلاء صاغرين. ويعرض هذا القسم في هذا الموقف بعض آيات الله الكونية التي يمرون عليها غافلين، يعرض عليهم الليل وقد جعله الله سكناً، والنهار مبصراً، والأرض قراراً والسماء بناء، ويذكرهم بأنفسهم وقد صورهم، ويوجههم إلى دعوة الله مخلصين له الدين. وفي هذا القسم عينه، يأمر الله تعالى رسوله (ص) أن يبرأ من عبادة الذين يدعون من دون الله سبحانه، وأن يعلن إسلامه لرب العالمين؛ ثم يؤكّد السياق أنّ الله الواحد هو الذي أنشأهم من تراب ثم من نطفة، وهو الذي يُحْيِي ويميت. ثم يلفت الحقّ تعالى رسوله (ص) إلى أمر الذين يجادلون في الله، ويُنذرهم عذابَ يوم القيامة في مشهد عنيف، تعلق فيه الأغلال في أعناقهم، ويُسْحبون في الحميم، ويُحرقون في النار جزاء كفرهم

وشركهم بالله؛ وفي ضوء هذا المشهد يوجّه الله رسوله إلى الصبر والثقة بأن وعد الله حق، سواء أأبقاه حتى يشهد ما يعدهم، أم توفاه قبل أن يراه، فسيتحقق الوعد هناك.

الفصل الرابع:
نهاية الظالمين

يشتمل الفصل الرابع على الآيات الأخيرة من السورة [٧٨ ـ ٨٥]، ويذكر أن الله أرسل رسلاً وأنبياء كثيرين لهداية الناس، منهم من ذُكِرَ في القرآن، ومنهم من لم يذكر:

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ﴾ [الآية ٧٨]، وأن يقدم معجزة لقومه: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [الآية ٧٨].

على أن في الكون آيات قائمة وبين أيديهم آيات قريبة، ولكنهم يغفلون عن تدبُّرها... هذه الأنعام المسخّرة لهم من سخّرها؟ وهذه الفلك التي تحملهم أليست آية يرونها؟ ومصارع الغابرين، ألاتثير في قلوبهم العظة والتقوى؟! وتُختَم السورة بإيقاع قوي على مصرع من مصارع المكذبين وهم يرون بأس الله فيؤمنون، حيث لا ينفعهم الإيمان:

﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ترابط الآيات في سورة «غافر»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة «غافر» بعد سورة «الزُّمَر»، وقد نزلت سورة «الزمر» بعد الإسراء وقُبَيْل الهجرة، فيكون نزول سورة «غافر» في ذلك التاريخ أيضاً.

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى في أوّلها: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الآية ٣] وتبلغ آياتها خمساً وثمانين آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السورة كالغرض من السورة السابقة، وهو الحث على إخلاص العبادة لله. ولهذا ذكرت بعدها، والفرق بينهما في ذلك أنّ المشركين أُخذوا في السورة السابقة بطريق الدليل على فساد اعتقادهم في شفعائهم، وإن جاء فيه شيء من الترغيب والترهيب، وأخذوا في هذه السورة بطريق الترغيب والترهيب، وإن جاء فيه شيء من الطريق الأول.

التمهيد بالترهيب والترغيب الآيات [١ ـ ١٢]

قال الله تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٢﴾﴾ فذكر، سبحانه، من صفاته أنه عزيز عليم يغفر الذنب ويقبل التوب، ويأخذ بالعقاب الشديد، وإليه المصير. وذَكَرَ أنه لا يجادل في ذلك إلا الذين كفروا به، ونهى النبي (ص) أن يغترّ في ذلك

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجمايز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

بما اغترّوا به من تقلّبهم في البلاد، فقد سبقهم إلى هذا الغرور من كان أشدّ منهم من قوم نوح والأحزاب من بعدهم، فكذّبوا رسلهم وهمّوا بهم ليأخذوهم فأخذهم الله بعقابه وأهلكهم. ثم شرع السياق في الترغيب بعد الترهيب، وذلك بالتذكير أن الملائكة يستغفرون لمن آمن به جلّ وعلا، ويطلبون منه أن يدخلهم ما وعدهم به من جناته. ثم عاد السياق إلى ترهيب الكافرين بعذاب الآخرة بعد ترهيبهم بعذاب الدنيا، إلى قوله تعالى في بيان السَّبَب: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾.

الأمر بإخلاص العبادة لله
الآيات [١٣ ـ ٥٤]

ثم قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ فذكر الدليل على تَفرُّده بالألوهية، وأَمَرَ بإخلاص العبادة له، ثم وَصَفَ نفسه، جلّ وعلا، بأنه رفيع الدرجات يختار لرسالته من يشاء لينذر يوم التّلاقي. ومضى في ترهيبهم بهذا اليوم إلى أن ذَكَرَ أنه ليس للظالمين فيه حميم ولا شفيع ممّا يَعُدُّونه من دونه، وأنه هو الذي يَقْضي فيه بالحق، والذين يعبدون من دونه لا يقضون بشيء. ثم أخذ السياق في ترهيبهم بما حصل لمن كفر قبلهم، وكانوا أشدّ منهم قوّة وآثاراً في الأرض فلم تُغْنِ عنهم قوّتهم شيئاً ولا آلهتهم؛ وذَكَرَ من أخبار هؤلاء الكفّار خبر فرعون وهامان وقارون مع موسى. وتمتاز قصتهم هنا بتفصيل ما كان فيها من مؤمن آل فرعون، إلى أن ذَكَر ما حاق بهم من سوء العذاب في دنياهم وأُخراهم. وختم ذلك بما كان من نصر موسى وقومه: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٤﴾﴾.

ختم السورة
بالترهيب والترغيب
الآيات [٥٥ ـ ٨٥]

ثم قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾ فأمر النبي (ص) بالصبر على هؤلاء المشركين المغترين بدنياهم، وَوَعَدَهُ

بالنصر عليهم، كما نصر موسى وقومه على فرعون وهامان وقارون؛ وذكر سبحانه أن الذي يحملهم على الجدال في آياته بغير دليل تكبُرهم أن يكونوا مرؤوسين، وماهم ببالغي ما يريدون من ذلك، فلا بُدَّ مِنْ تَحَقُّقِ وَعْدِ الله عليهم، ومهما بلغوا فإنهم لا يُعْجِزُونَ الذي خلق السماوات والأرض؛ وخَلْقُ ذلك أكبر من خَلْقِ الناس. ثم ذكر سبحانه، أنه لا يستوي أمر المؤمنين وأولئك المتكبّرين، وأن الساعة التي يفصل فيها بين الفريقين آتية لا ريب فيها؛ وأمر المؤمنين أن يستمرُّوا على الإخلاص في عبادته ليستجيب لهم، ويَقِيَهُمْ ممّا أعدّه لمن يستكبر عن عبادته. ثمّ ذكر ممّا يوجب عبادته عليهم أنه، جلّ وعلا، هو الذي جعل لهم الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً، إلى غير هذا مما ذكره من الآيات الدّالّة على قدرته وعظمته وتفضُّله وإنعامه. ثم بيّن السّياق العَجَبَ، بعد هذا، من أولئك المتكبِّرين الذين يجادلون في آيات الله. ومضى في تهديدهم على ذلك إلى قوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ۝٧٦﴾.

ثم أمر تعالى النبي (ص) بالصبر ووعده بالنصر عليهم، وذكر أنه سيريه في الدنيا بعض الذي يَعِدُهُم، ثمّ يُرْجعهم إليه فينتقم منهم أشدَّ انتقام، ولكلٍّ من ذلك أجل يأتي فيه، وشأنه في ذلك شأن الرسل قبله، وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله، فإذا جاء أمره حلّ وعده عليهم. وفي سياق ترغيبهم وترهيبهم ذكر تعالى أنه هو الذي جعل لهم الأنعام لركوبهم وأكلهم، إلى غير هذا مما ذكره من نِعَمه عليهم، ثم أمرهم أن يسيروا في الأرض لينظروا عاقبة الذين كفروا من قَبْلهم، وقد اغترّوا بقوّتهم فاستهزأوا برسلهم وفرحوا بما عندهم من العلم، فلمّا أخذهم الله بعذابه قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنّا به مشركين: ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٨٥﴾.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

أسرار ترتيب سورة «غافر»(*)

أقول: وجه إيلاء الحواميم السبع[1] سورة «الزمر»: تآخي المطالع في الافتتاح بتنزيل الكتاب. وفي مصحف أُبَيّ بنِ كعب: أول الزمر (حم) وتلك مناسبة جليلة.

ثم إنّ الحواميم ترتّبت لاشتراكها في الافتتاح بـ (حم)، وبذكر الكتاب بعد (حم)، وأنها مكية، بل ورد في الحديث أنها نزلت جملة.

وفيها شَبَهٌ من ترتيب ذوات (الر) الست[2].

فانظر إلى ثانية الحواميم، وهي «فصّلت»، كيف شابهت ثانية ذوات (الر)، أي «هود» في تغيير الأسلوب في وصف الكتاب. في «هود»: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ [الآية ١]، وفي فصّلت: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [الآية ٣]. وفي سائر ذوات (الر) ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[3]، وفي سائر الحواميم: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أو ﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾[4].

وروينا عن جابر بن زيد وابن عباس في ترتيب نزول السور: أن الحواميم

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(١) الحواميم السبع هي: غافر، وفصلت والشورى، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف.

(٢) ذوات (الر) الست هي يونس، وهود، ويوسف، والرعد، (وأولها: المر) وابراهيم، والحجر.

(٣) ولكن في ابراهيم ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ [الآية ١].

(٤) ولكن في فصلت: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وفي الشورى ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ﴾ [الآية ٣].

نزلت عَقِبَ «الزمر»، وأنها نزلت متتاليات كترتيبها في المصحف: «المؤمن»، ثم «السجدة»، ثم «الشورى»، ثم «الزخرف»، ثم «الدخان»، ثم «الجاثية»، ثم «الأحقاف». ولم يتخلّلها نزول غيرها. وتلك مناسبة جليّة واضحة في وضعها هذا.

ثم ظهر لي لطيفة أخرى، وهي: أنه في كل ربع من أرباع القرآن توالت سبع سور مفتتحة بالحروف المقطعة. فهذه السبع مصدرة بـ (حم) وسبع في الربع الذي قبله ذوات (الر) الست متوالية، و(المص) الأعراف، فإنها متصلة بـ «يونس» على ما تقدمت الإشارة إليه. وافتتح أول القرآن بسورتين من ذلك، وأول النصف الثاني بسورتين[1].

وقال الكرماني في «العجائب»[2]: ترتيب الحواميم السبع لما بينها من التشاكل الذي خصت به، وهو: أن كل سورة منها استفتحت بالكتاب أو وصفه، مع تفارت المقادير في الطول والقصر، وتشاكل الكلام في النظام.

قلت وانظر إلى مناسبة ترتيبها، فإن مطلع غافر مناسب لمطلع الزمر، ومطلع فصلت التي هي ثانية الحواميم مناسب لمطلع هود، التي هي ثانية ذوات (الر) ومطلع الزخرف مؤاخ لمطلع الدخان، وكذا مطلع الجاثية لمطلع الأحقاف[3].

---

(١) كان حق الكلام (بسبع سور) فنصف القرآن بالآيات في سورة الشعراء (الاتقان: ١/ ٢٤٣). وعليه يكون نصف القرآن مُفْتَتحاً بالشعراء، وأولها (طسم)، والنمل، (طس)، والقصص (طسم)، والعنكبوت (الم)، والروم (الم)، ولقمان (الم)، والسجدة (الم). واذا اعتبرنا النصف المعروف لنا فالسورتان هما (مريم، وطه).

(٢) هو كتاب «لباب التفسير وعجائب التأويل» لتاج القراء محمود بن حمزة بن نصر الكرماني (خط). ولم نعثر عليه مخطوطاً ولا مطبوعاً، انظر (معجم الأدباء ١٩/ ١٢٥). وقد ذكره الكرماني في (أسرار التكرار في القرآن ص ١٨).

(٣) مطلع الزمر: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝﴾ومطلع غافر: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝﴾. ومطلع هود ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ [هود/ ١]. ومطلع فصلت: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [فصلت/ ٣]. وهكذا جميع المطالع التي ذكرها المؤلف.

مكنونات سورة «غافر»(*)

١ - ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [الآية ٢٨]

أخرج ابن أبي حاتم عنِ السُّدّي: أنه ابنُ عم فِرعَوْنَ. وتَقَدَّمَ الخلاف في اسمه في الآية ٢٠ من سورة القَصَص.

٢ - ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١)﴾.

قال زَيْد بنُ أسْلَم: هم النبيون، والملائكةُ، والمؤمِنون.

وقال السُّدّي: الملائكة فقط. أخرجهما ابنُ أبي حاتم.



(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِماتِ الأقران في مُبْهمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

لغة التنزيل في سورة «غافر»(*)

قال تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾.

أقول: ربما استطعنا أن نضع إشارات نقف عندها، فَنُقَطِّع هذه الآية على النحو الآتي:

غافر الذنب، وقابل التوب، شديد العقاب ذي الطول، لا إله إلا هو إليه المصير.

أقول: يتبين لنا من هذه التجزئة جمال هذا النظم البديع، الذي اتصفت به لغة القرآن، وعلى هذا يتفق إحسان النظم مع إحكام المعاني والأغراض.

ألا ترى أنه حين جاء قوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ جاء بعده ﴿ٱلتَّوۡبِ﴾ وليس «التوبة»، ليتوفر هذا النحو من المماثلة في الأبنية، فَيَحْسُنُ بذلك النَّظْمُ.

ثم قال: ﴿ذِي ٱلطَّوۡلِۖ﴾ فتمّ بذلك ما ذهبنا إليه من حسن هذه الديباجة العامرة.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ﴾ [الآية ٨].

أردت أن أشير إلى أنَّ الفصيح «صَلَحَ» مثل كتب، الذي ورد في الآية، قد عُدِلَ عنه في اللغة المعاصرة خطأً إلى «فَعُلَ» مثل «عَظُمَ».

٣ ـ وقال تعالى: ﴿كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الآية ٢١].

المراد بقوله تعالى: ﴿وَءَاثَارٗا﴾

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

الحصون والقصور..

أقول: وهذا يؤيّد قول المعاصرين في الكلام على مصنّفات أحدهم من الكتب وغيرها: آثارُه.

٤ ـ وقال تعالى: ﴿ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ۝٧٢﴾.

وهو من قولهم: «سَجَر التنُّور» إذا ملأه بالوقود.

أقول: وما زال هذا الفعل معروفاً في العامية الدارجة في العراق، وهو بالسين فيقولون سجر التنور، مرةً، وبالشين، شَجَرَ التنُّور أخرى.

وهم يتوسعون فيه فتقول الخبّازة: خبزت «شجاراً» واحداً أو «شجارين» أي: ما يعدل إيقاد التنُّور بالوقود خبزاً في كل مرة.



المبحث السادس

المعاني اللغوية في سورة «غافر»(*)

قال تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ فهذا على البدل. وأما ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ فقد يكون معرفة لأنك تقول: «هذا ضاربُ زيدٍ مُقْبِلاً» إذا لم ترد به التنوين. ثم قال سبحانه ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ [الآية ٣] فيكون على البدل وعلى الصفة، ويجوز فيه الرفع على الابتداء والنصب على خبر المعرفة إلا في ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ فإنه لا يكون فيه النصب على خبر المعرفة لأنه معرفة. و «التَوْبُ» هو جماعة التَوْبَةِ ويقال «عَوْمَةٌ» و«عَوْمٌ» في «عَوْمِ السَّفِينَةِ». قال الشاعر: [من البسيط وهو الشاهد الخامس والستون بعد المئتين].

عَوْمَ السَّفِينِ فَلَمّا حالَ دُونَهُمُ
فَيْدُ القُرَيَّاتِ فالفُتْكانُ فالكَرَمُ

قال تعالى: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ﴾ [الآية ٥] بالجمع على «الكُلّ» لأن الكُلّ مذكّر معناه معنى الجماعة.

وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦﴾ أي: لأنّهم أوْ بأنّهم وليس ﴿أَنَّهُمْ﴾ في موضِع مفعول. ليس مثل قولك «أحَقَّت أنهم».

وقال جلّ وعلا: ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [الآية ٧] فانتصابه كانتصاب: «لَكَ مِثْلُه عَبْداً» بِجَعْلِ ﴿وَسِعْتَ﴾ لـ ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ وهو مفعول به، والفاعل التاء، وجعل

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.

(الرَّحْمَةِ) و(العِلْم) تفسيراً قد شُغل عنهما الفعل، كما شغل «المِثْلُ» بالهاء، فلذلك نُصِبَ تشبيهاً بالمفعول بعدِ الفاعل.

وقال تعالى: ﴿يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [الآية ١٠]. فهذه اللام هي لام الابتداء: كأنه: ﴿يُنَادَوْنَ﴾ فيقال لهم، لأنّ النِداءَ قول. ومثله في الإعراب يقال: «لَزَيْدٌ أفضلُ مِنْ عَمْرٍو».

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ [الآية ١٦] بإضافة المعنى، فلذلك لا ينون «اليوم» كما: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الذاريات] و ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المرسلات]. معناه: هذا يوم فتنتهم. ولكن لما ابتدأ الاسم وبقي عليه، صار الجرّ أولى. وكانت الإضافة في المعنى إلى الفتنة، وهذا إنّما يكون إذا كان «اليَوْم» في معنى «إذْ»، وإلاّ فهو قبيح.

ألا ترى أنك تقول «لَقِيتُكَ زَمَنَ زَيْدٌ أَمِيرٌ» أي: إذْ زَيْدٌ أمِير. ولو قلت: «ألْقَاكَ زَمَنَ زيدٍ أمير»، لَمْ يَحْسُن.

وقال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ [الآية ١٥] على الابتداء.

والنصب جائز لو كان في الكلام على المدح.

وقال سبحانه: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [الآية ١٦]. فهذا على ضمير «يقُولُ».

وقال تعالى: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾ [الآية ١٨]. فانتصاب ﴿كَٰظِمِينَ﴾ على الحال، كأنّ المعنى: «القلوبُ لدى الحَناجِرِ في هذه الحال».

وقال تعالى: ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾. فمن نوّن جعل (المتكبِّر الجبار) من صفته، ومن لم ينوّن أضاف (القلب) الى (المتكبر).

وقال تعالى: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى﴾ [الآية ٣٦]. بعضهم يضم النون كأنه أَتْبَعَها ضمة النون التي في (هامان) كما قالوا: «مِنْتِنٌ» فكسروا الميم للكسرة التي في التاء، وبينها حرف ساكن فلم يَحُل. وكذلك لم تَحُلِ الباء في قوله تعالى: ﴿ٱبْنِ لِى﴾.

وقال تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾ ﴿ٱلنَّارُ﴾ [الآية ٤٦]. فإن شئت جعلت ﴿ٱلنَّارُ﴾ بدلا من ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾ ورفعتها على ﴿وَحَاقَ﴾، وإن شئت جعلتها تفسيراً ورفعتها على

الابتداء كأنك تقول: «هي النار» وإن شئت جَرَرْتَ على أن تجعل ﴿ٱلنَّارِ﴾ بدلا من ﴿ٱلعَذَابِ﴾ كأنّ المراد: «سوءُ النارِ».

وقال تعالى: ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴿٤٦﴾﴾ وفيه ضمير «يقال لهم أدْخُلُوا يا آلَ فِرْعَوْنَ»: ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴿٤٦﴾﴾ فإنما هو مصدر كما تقول: «آتِيهِ ظَلاماً» تجعله ظرفاً وهو مصدر جُعل ظرفاً، ولو قلت «مَوْعِدُكَ غَدِوَةٌ» أو «مَوْعِدُكَ ظلامٌ» فرفعته كما تقول: «مَوْعِدُكَ يومُ الجمعة»، لم يَحْسُنْ لأنّ هذه المصادر وما أشبهها من نحو «سَحَر» لا تجعل إلا ظرفاً، والظرف كله ليس بمتمكن.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ [الآية ٤٨] بجعل ﴿كُلٌّ﴾ اسماً مبتدأ، كما تقول: «إنَّا كُلُّنا فيها».

وقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴿٥١﴾﴾ و (تَقُومُ)[1] كلٌ جائز، وكذلك كل جماعة مذكر أو مؤنث من الإنس، فالتذكير والتأنيث في فعله جائز.

وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴿٥٥﴾﴾ أي «في الإبكارِ». وقد تقول «بالدارِ زَيْدٌ» تريد «زَيْدٌ في الدَّارِ».

وقال تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [الآية ٦٠] فقوله سبحانه: ﴿أَسْتَجِبْ﴾ إنّما هو «أفْعَلْ» [وما] هذه الألف سوى ألف الوصل. ألاَ تَرَى أنك تقول: «بعْتَ» «تَبِيعُ» ثم تقول «أبيعُ» فتجيء فيها ألف لـ «أفْعَلُ» فهي نظير الياء والتاء في «يَفْعَلُ» و «تَفْعَلُ» تقطع كل شيء كان على «أفْعَلُ»، في وصلٍ كان أو قطع.

وقال تعالى: ﴿كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ [الآية ٤٧] «فالتَّبَعُ» يكون واحداً وجماعةً، ويُجمع فيقال «أتْباع».

وقال تعالى: ﴿لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا﴾ [الآية ٧٩] فكأن السياق أضمر «شَيْئاً».

وقال سبحانه: ﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴿٤٦﴾﴾ وقال جلّ وعلا:

(١) في الطبري ٢٤/٧٥ نسبت القراءة بالتاء على التأنيث الى بعض أهل مكة، وبعض قراء البصرة؛ وفي البحر ٧/ ٤٧٠ إلى ابن هرمز وإسماعيل والمنقري، عن أبي عمرو.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء]. فيجوز أن يكون آل فرعون أُدخِلُوا مع المنافقين في الدَّرْكِ الأسفل، وهو أشدّ العذاب.

وأمّا قوله تعالى: ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [المائدة]. فقوله جلّ شأنه: ﴿لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا﴾ من عالَمِ أهْلِ زمانِهِ.



المبحث السابع

لكل سؤال جواب في سورة «غافر»(*)

إن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الآية ٤].

مع أن الذين آمنوا يجادلون أيضا فيها، أمنسوخة هي أم محكمة؟ أفيها مجاز أم كلها حقيقة؟ أمخلوقة هي أم قديمة؟ وغير ذلك.

قلنا: المراد الجدال فيها بالتكذيب، ودفعُها بالباطل والطعن بقصد إدحاض الحق وإطفاء نور الله تعالى، ويدل عليه قوله تعالى عقيبه: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [الآية ٥].

فإن قيل: ما الحكمة في قوله تعالى في وصف حَمَلَةِ العرش: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [الآية ٧] ولا يخفى على أحد أن حملة العرش يؤمنون بالله تعالى؟

قلنا: الحكمة إظهار شرف الإيمان وفضله والترغيب فيه كما وصف الأنبياء (ع) بالصلاح والإيمان في غير موضع من كتابه.

فإن قيل: في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ [الآية ١١] كيف صح أن يسمى خلقهم أمواتاً إماتة؟

قلنا: هذا كما تقول: سبحان مَنْ صغَّر جسم البعوضة وكبَّر جسم الفيل، وكما تقول للحفّار: ضيِّق فم الركيّة ووسّع أسفلها، وليس فيهما نقل من كبر إلى صغر ومن صغر إلى كبر، ولا من سَعة إلى ضيق ولا من ضيق إلى سَعة؛ وإنما أردت الإنشاء على تلك الصفات. والسبب في صحته أن الصِّغَر

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

والكِبَر جائزان معاً على ذات المصنوع الواحد من غير ترجيح لأحدهما، وكذلك الضيق والسعة؛ وإذا اختار الصانع أحد الجائزين، وهو متمكن منهما على السواء، فقد صرف المصنوع عن الجائز الآخر، فجعل صرفه عنه كنقله منه.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ [الآية ١٦] بيان وتقرير لبروزهم في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ﴾ [الآية ١٦] والله تعالى لا يخفى عليه شيء، برزوا أولم يبرزوا؟

قلنا: معناه لا يخفى على الله منهم شيء في اعتقادهم أيضاً، فإنهم كانوا في الدنيا يتوهمون إذا تستّروا بالحيطان والحجب أنّ الله لا يراهم، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢)﴾ [فصلت].

فإن قيل: لِمَ قال المؤمن في حق موسى (ع) كما ورد في التنزيل: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ [الآية ٢٨] مع أنه صادق في زعم القائل لهذا القول، وفي نفس الأمر أيضاً، ويلزم من ذلك أن يصيبهم جميعُ ما وعدهم لا بعضه فقط؟

قلنا: فيه وجوه: أحدها أن لفظة بعض صلة. الثاني: أنها بمعنى «كل» كما في قول الشاعر:

إنّ الأمُورَ إذا الأحْداثُ دَبّرها
دُونَ الشُيوخِ ترى في بعضِها خَللا

ومنه قول لبيد:

أوَ لَمْ تكُنْ تَدْرِي نَوَارُ بأنني
وَصّالُ عَقْدِ حَبَائِلٍ جَذّامُها

تَرّاكُ أمْكنةٍ إذا لَمْ أرْضَها
أو يَرْتَبِطْ بعضَ النُفوسِ حِمامُها

قلنا: ولقائلٍ أن يقول: إن لفظة بعض في البيتين على حقيقتها، وكنى لبيد ببعض النفوس عن نفسه، كأنه قال: أتركها إلى أن أموت، وكذا فسّره ابن الأنباري؛ على أنّ أبا عبيدة قال: إن لفظة «بعض» في الآية بمعنى كل، واستدل ببيت لبيد؛ وأنكر الزمخشري على أبي عبيدة هذا التفسير؛ على أن غير أبي عبيدة قال في قوله تعالى حكاية عن عيسى (ع) لأمته: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [الزخرف/ ٦٣] أن لفظة «بعض» فيه بمعنى كل. الثالث: أنها على أصلها. ثم في ذلك وجهان: أحدهما أنه وعدهم النجاة إن آمنوا، والهلاك إن كفروا، فذكر لفظة بعض لأنهم على إحدى الحالتين لا

محالة. الثاني أنه وعدهم على كفرهم الهلاكَ في الدنيا والعذابَ في الآخرة، وكان هلاكهم في الدنيا بعضاً، فمراده: يصيبكم في الدنيا بعضُ الذي يعدكم. الرابع: أنه ذكر البعض بطريق التنزّل والتلطّف وإمحاض النصيحة من غير مبالغة ولا تأكيد، ليسمعوا منه ولا يتّهموه، فيردوا عليه وينسبوه إلى مَيْلٍ إلى موسى (ع) ومحاباة؛ فكأنه قال: أقلّ ما يصيبكم البعض وفيه كفاية؛ قال الشاعر:

قد يُدْرِكُ المُتأنّي بعضَ حاجَتِه
وقد يكُونُ مِن المُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ

كأنه يقول أقلّ ما يكون في التأني إدراك بعض المطلوب، وأقلّ ما يكون في الاستعجال الزلل، فقد بان فضل التأني على العجلة بما لا يقدر الخصم على دفعه وردّه. والوجه الرابع هو اختيار الزمخشري رحمة الله عليه.

فإن قيل: التولّي والإدبار واحدٌ، فما الحكمة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ [الآية ٣٣]؟

قلنا: هو تأكيد، كقوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل/٢٦] ونظائره كثيرة. الثاني: أنه استثارةُ لحميّتهم، واستجلابٌ لأنفتهم، لِمَا في لفظ «مدبرين» من التعريض بذكر الدبر، فيصير نظير قوله تعالى: ﴿وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر].

فإن قيل: ما الحكمة في التكرار في قوله تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ولِمَ لَمْ يَقُلْ: أبلغ أسباب السماوات؟ أي أبوابها وطرقها.

قلنا: إذا أُبهم الشيء ثمّ أُوضح كان تفخيماً لشأنه وتعظيماً لمكانه، فلما أريد تفخيم ما أَمِلَ بلوغه من أسباب السموات أُبهمت ثمّ أُوضحت.

فإن قيل: مِثْل السيئة سيئة، فما المقصود في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الآية ٤٠]؟

قلنا: معناه أنّ جزاء السيئة له حساب وتقدير لا يزيد على المقدار المستحق، وأمّا جزاء العمل الصالح فبغير تقدير حساب كما قال تعالى في آخر الآية.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام/١٦٠] ينافي ذلك.

قلنا: ذلك لمنع النقصان لا لمنع الزيادة، كما قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس/٢٦].

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَقَالَ

﴿ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ [الآية ٤٩] ولم يقل: وقال الذين في النار لخزنتها مع أنه أوجز؟

قلنا: لأن في ذكر جهنم تهويلاً وتفظيعاً. وقيل إن جهنّم هي أبعد النار قعراً، وخزنتها أعلى الملائكة الموكلين بالنار مرتبةً، فإنّما قصدهم أهل النار بطلب الدعاء منهم لذلك.

فإن قيل: لِمَ قال المشركون كما ورد في التنزيل: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ [الآية ٧٤] مع قولهم كما ورد في التنزيل أيضاً: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ﴾ [النحل/٨٦]؟

قلنا: معناه أن الأصنام التي كنا نعبدها لم تكن شيئا لأنها لا تنفع ولا تضرّ. الثاني أنهم قالوا كذباً وجحوداً، كقولهم كما ورد في التنزيل: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام].

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ ولم يقل: وفي الفلك تحملون، كما قال سبحانه: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [هود/ ٤٠]. ؟

قلنا: معنى الوعاء ومعنى الاستعلاء كلاهما صحيح في الفُلْك، لأنه وعاء لمن يكون فيه وحمولة لمن يستعليه؛ فلما صحّ المعنيان استقامت العبارتان معاً.

المبحث الثامن

المعاني المجازية في سورة «غافر»(*)

في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [الآية ٧]. استعارة: لأن حقيقة السعة إنما توصف بها الأوعية والظروف التي هي أجسام، ولها أقدار ومساحات، والله سبحانه يتعالى عن ذلك.

والمراد، والله أعلم، أنّ رحمتك وعلمك وَسِعَا كُلَّ شيء، فَنَقَلَ الفعل إلى الموصوف على جهة المبالغة كقولهم: طِبْتُ بهذا الأمر نَفْساً، وضِقتُ به ذَرْعاً. أي طابت نفسي، وضاق ذَرْعي. وجُعل العلم موضع المعلوم؛ كما جاء قوله سبحانه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة/ ٢٥٥] أي بشيء من معلومه.

وفي قوله سبحانه: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾ استعارتان. إحداهما قولهُ تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ والمعنى: أن منازل العزّ، ومراتب الفضل التي يخصُّ بها عبادَه الصالحين، وأولياءه المخلصين رفيعة الأقدار، مشرفة المنار.

فالدرجات المذكورة هي التي يرفع عباده إليها، لا التي يرتفع هو بها، تعالى عن ذلك عُلُوّاً كبيراً.

والاستعارة الأخرى قوله سبحانه: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ والرُّوح هٰهنا كناية عن الوحي كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

﴿مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ [الشورى/٥٢] وإنما سُمِّيَ روحاً لأن الناس يَحْيَوْنَ به من موت الضلالة، ويُنْشَرُونَ من مدافن الغفلة. وذلك أحسنُ تشبيه، وأوضح تمثيل.

وفي قوله سبحانه: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾ استعارة. والمراد بخائنة الأعين، والله أعْلَمُ، الرِّيَب في كسر الجفون، ومرامز العيون.

وسمّى سبحانه ذلك خيانة، لأنه أمارة للرِّيبة، ومُجانب للعفّة.

وقد يجوز أن تكون خائنة الأعين هٰهنا صفةً لبعض الأعين بالمبالغة في الخيانة، على المعنى الذي أشرنا إليه. كما يقال علاّمة، ونسّابة.

وأنشدوا قول الشاعر في مثل ذلك:

حَدَّثْتَ نَفْسَكَ بِالْوَفاءِ وَلَمْ تَكُنْ
لِلْغَدْرِ خَائِنَةً مُغِلَّ الإِصْبَعِ

أي لم تكن موصوفاً بالمبالغة في الخيانة. ومعنى مغلّ الإصْبعِ: سارق مختلس.

وأضاف الأغلال إلى الإصبع، كما أضاف الآخر[1] الخيانة إلى اليد في قوله:

أَوَلَّيْتَ العِرَاقَ وَرَافِدَيْهِ
فَزَارِيًّا أَحَذَّ يَدِ القَمِيصِ

أي خفيف اليد في السرقة والأحذّ الخفيف السريع. وعنى برافديه: دجلة والفرات.

وإنما ذكرت اليد والإصبع في هذين الموضعين، لأنّ فعل السارق والمختلس في الأكثر إنّما يكون باستعمال يده، واستخدام أصابعه.

---

(١) هو الشاعر الفرزدق. والبيت من أبيات في ديوانه، وقد أشار إليه ابن قتيبة في مقدمته لكتابه «الشعر والشعراء» ص ٣٤، وهو يتحدّث عن التكلّف وضرورات القافية. والفرزدق يخاطب الخليفة يزيد بن عبد الملك شاكياً عمر بن هبيرة.

وفي «أساس البلاغة» للزمخشري، روي هذا البيت هكذا:

بعثت على العراق ورافديه ... فزاريًّا أحذَّ يَدِ القميص

سورة فُصِّلَت

٤١



أهداف سورة «فصّلت» (*)

سورة «فصّلت» سورة مكية نزلت بعد الإسراء وقبيل الهجرة وآياتها ٥٤ آية نزلت بعد سورة «غافر».

أسماؤها: تسمى سورة «فصّلت» لقوله تعالى في أوائلها:

﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾.

وتسمى سورة «حم السجدة» لاشتمالها على السجدة، وسورة «المصابيح» لقوله تعالى:

﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝١٢﴾.

روح السورة

الروح الساري بين آيات سورة «فصلت»، هو عرض أهداف الدعوة الجديدة، وأركانها وحقائقها الأساسية، وهذه الحقائق هي:

الإيمان بالله وحده، وبالحياة الآخرة، وبالوحي والرّسالة، ويضاف إلى ذلك طريقة الدعوة إلى الله وخُلُق الداعية.

وكلّ ما في السورة هو شرح لهذه الحقائق، واستدلال عليها، وعرض لآيات الله في الأنفس والآفاق، وتحذيرٌ من التكذيب بها، وتذكير بمصارع المكذبين في الأجيال السابقة، وعرض لمشاهد المكذّبين يوم القيامة، وبيانُ أن المكذّبين من الجن والإنس هم وَحْدَهُمُ الذين لا يسلمون بهذه الحقائق، ولا يستسلمون لله وحده،

(*) انتقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

بينما السماء والأرض والشمس والقمر والملائكة... كلهم يسجدون لله، ويخضعون لأمره، ويسلمون ويستسلمون.

موضوعا السورة

في سورة «فصلت» موضوعان اثنان:

الموضوع الأول

يستغرق نصف السورة الأول الآيات [١ ـ ٣٦]، ويبدأ بالآيات التي تتحدث عن تنزيل الكتاب وطبيعته، وموقف المشركين منه، وتليها قصّة خلق السماء والأرض، فقصّة عاد وثمود، فمشهدهم في الآخرة تشهد عليهم الأسماع والأبصار والجلود. ومن هنا يرتد السياق إلى الحديث عنهم في الدنيا وكيف ضلّوا هذا الضلال، فيذكر أن الله سبحانه قَيَّضَ لهم قُرَناء سوء من الجن والإنس، يزيّنون لهم ما بين أيديهم وما خلفهم، ومن آثار هذا قولهم، كما ورد في التنزيل: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴿٢٦﴾﴾.

ثم موقفهم يوم القيامة حانقين على هؤلاء الذين خدعوهم من قرناء الجن والإنس. وفي الجهة الأخرى نجد الذين قالوا: ربُنا الله، ثم استقاموا. وهؤلاء تتنزل عليهم الملائكة، لا قرناء السوء، يطمئنونهم ويبشرونهم ويعلنون ولايتهم لهم في الدنيا والآخرة؛ ويلي هذا ما جاء عن الدعوة والداعية، وبذلك ينتهي الموضوع الأول.

الموضوع الثاني

تتحدّث الآيات [٣٧ ـ ٥٤] عن آيات الله من الليل والنهار، والشمس والقمر، والملائكة العابدة، والأرض الخاشعة، والحياة التي تهتز فيها وتربو بعد الموات. ويلي هذا الحديث عن الذين يُلحدون في آيات الله وفي كتابه. وهنا يجيء ذلك الحديث عن هذا الكتاب، ويشار إلى كتاب موسى واختلاف قومه فيه، وأنه لولا سَبْقُ حكمه بإمهالهم لعَجَّل بقضائه بينهم.

وهنا يَرِدُ حديث عن الساعة واختصاص عِلْم الله بها، وعلمه بما تُكِنُّه الأكمام من ثمرات، وما تُكِنُّه الأرحام من أنسال، ويعرض مشهد الكافرين وهم يسألون عن الشركاء. يلي هذا الحديث عن النفس البشرية عارية من أستارها، ومع حرص

الإنسان على نفسه هكذا، فإنه لا يحتاط لها، فيكذب ويكفر، غير محتاط لما يَعْقُب هذا التكذيب من دمار وعذاب.

وتُختم السورة بوعد من الله سبحانه، أن يكشف للناس عن آياته، في الآفاق وفي أنفسهم. وقد صدق الله وَعْدَهُ، فكشف لهم عن آياته في الآفاق خلال الأربعة عشر قرناً، التي تلت هذا الوعد، فعرفوا كثيراً عن مادة هذا الكون، وعرفوا أن أساس بناء هذا الكون هو الذرّة، وأدركوا أن الذرة تتحول إلى الإشعاع، كما فهموا أن الكون كله من الإشعاع.

وعرفوا الكثير عن كروية الأرض، وحركتها حول نفسها، وحول الشمس؛ وعرفوا الكثير عن المحيطات والأنهار، والمخبوء في جوف الأرض من الأرزاق.

وفي آفاق النفس اهتدى الإنسان إلى معرفة الكثير عن خصائص الجسم البشري وأسراره، ووظائفه وأمراضه، وغذائه وتمثيله، وأسرار عمله وحركته، ثم عن تطّور المعرفة حول ذكاء الإنسان، ونفسية الأفراد والجماعات، وقياس السلوك، ولا يزال الإنسان في الطريق إلى اكتشاف نفسه، واكتشاف الكون من حوله، حتى يَحِقَّ وَعْدُ اللهِ بأن كلماته حَقٌّ، وآياته صدق، وكتابه منزل، وهو على كل شيء شهيد... قال تعالى:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾.

ترابط الآيات في سورة «فصّلت»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة «فصّلت» بعد سورة «غافر»، ونزلت سورة «غافر» بعد الإسراء، وقبيل الهجرة، فيكون نزول سورة فصلت في ذلك التاريخ أيضاً.

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى في أولها: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣)﴾ وتبلغ آياتها أربعاً وخمسين آية.

الغرض منها وترتيبها

ترمي من هذه السورة إلى بيان الغرض من نزول القرآن، وهو التبشير بالثواب والإنذار بالعقاب، وهي بهذا تكاد تتفق في الغرض مع السورة السابقة، وهذا هو وجه ذكرها بعدها.

وقد جمع فيها بين الأخذ بالترغيب والترهيب، والأخذ بالدليل أيضاً.

بيان الغرض من نزول القرآن الآيات [١ ـ ٣٢]

قال الله تعالى: ﴿حمٓ (١) تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (٢)﴾ فذكر، سبحانه، أن القرآن تنزيل منه، وأنه كتاب فصّلت آياته ليكون بشيراً ونذيراً للناس، فأعرض أكثرهم عنه وقالوا استهزاء بوعيده، كما ورد في التنزيل: ﴿فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ (٥)﴾ وقد أمر النبي (ص) أن يجيبهم عن هذا بأنه بشر مثلهم، فليس له شيء من أمر عقابهم، وما

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجماميز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

عليه إلا أن يبلغهم ما يُوحَى إليه من دعوتهم إلى وحدانية الله، وإنذارهم بالويل والهلاك إن لم يؤمنوا به، وتبشير المؤمنين بأن لهم أجراً غير ممنون. ثم أخذ السياق يبيّن لهم قبح كفرهم به، فذكر أنهم يكفرون بالذي خلق الأرض في يومين. ومضى هذا السياق في ترتيب أيام خلق الأرض والسماوات، ثم أنذرهم إن أعرضوا عن الإيمان بالله تعالى، بعد ذلك، بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود. وأخذ في تفصيل ما حصل لهم من ذلك في دنياهم، ثم ذكر ما يحصل لهم بعد حشرهم من شهادة سمعهم وأبصارهم وجلودهم عليهم، إلى غير هذا مما ذكره من أمر آخرتهم، ثم عاد إلى ذكر إعراضهم عن إنذار القرآن لهم، فذكر أنهم قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴿٢٦﴾﴾. ثم هدّدهم جلّ جلاله على ذلك بما أعدّه لهم من العذاب الشديد، وذكر ما أعدّه للمؤمنين من حسن لقاء الملائكة لهم، إلى قولهم في لقائهم لهم ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴿٣٢﴾﴾.

شرف الغرض الذي تدعو اليه الآيات [٣٣ ـ ٥٤]

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴿٣٣﴾﴾؛ فذكر شرف الغرض في الدعوة إلى الله، وأمر رسوله (ص) أن يقابل في دعوته إساءتهم بالحسنة، وأن يستعيذ بالله جلّ وعلا إذا نزغهُ من الشيطان نَزْغٌ من الغضب؛ ثم ذكر سبحانه أن من آياته الليل والنهار والشمس والقمر، ونهاهم جلّ شأنه أن يسجدوا للشمس والقمر، وأمرهم بالسجود له تعالى، فإن استكبروا فلا ينقص ذلك شيئاً من سلطانه؛ وتسبيح الملائكة له سبحانه لا ينقطع إقراراً وإذعاناً. ثم ذكر السياق أن من آيات الله إحياء الأرض بالمطر، ليبين لهم أنّ الذي يحيي الأرض قادر على إحياء الموتى، وانتقل السياق من ذلك الى تهديدهم على إلحادهم في آياته بعد إحيائهم.

ثم عاد هذا السياق إلى تهوين أمر إساءتهم للرسول (ص) ليؤكّد ما أَمَرَهُ من مقابلتها بالحسنة، فذكر أنّه لا يقال له إلا ما قد قيل للرسل من قبله، فلا يصحّ أن يضيق صدْرُه بما قالوه في أول

السورة من أن في قلوبهم أكنّة ممّا يدعوهم إليه، إلى غير هذا مما حكى عنهم، وعليه أن يشتغل بالتبليغ ويفوّض أمره إلى الله سبحانه؛ فهو ذو مغفرة وذو عقاب أليم. ثم ذكر السياق أنه سبحانه لو جعله قرآناً أعجمياً، ولم يفصّل آياته بالعربية كما فصّله، لقالوا: لولا فصّلتْ آياته، لأنهم متعنّتون لا يرضيهم شيء. وذكر أنه هُدًى وشفاءٌ للمؤمنين، وأنّ غيرهم في آذانهم وقرٌ وهو عليهم عمًى، فلا عيب فيه وإنما العيب فيهم. ثمّ ذكر تعالى أنه آتى موسى التوراة قبله فاختلف فيها كما اختلف هؤلاء المشركون في القرآن بين مصدّق ومكذّب، وأنه لولا سَبْقُ حكمه بإمهالهم لعجّل بقضائه بينهم، فذكر أن من عمل صالحاً فلنفسه، ومن أساء فعليها. وذكر أن موعد ذلك ممّا اختص هو جل جلاله بعلمه، فإذا أتى يومه ناداهم أين شركائي؟ فيتبرأون من إثبات الشركاء له. ثم بينّ أن إنكارهم لهم في الآخرة بعد إقرارهم بهم في الدنيا هو شأن الإنسان لا يثبت على حال، فإن أقبلت عليه الدنيا لا ينتهي إلى درجة إلاّ ويطلب أَزْيَد منها، وإن أدبرت عنه بالغ في اليأس والقنوط، وإن عاودته النعمة، اغترّ بها، وظنّ أنها حق له لا يزول عنه؛ وأنه لا ساعة قائمة؛ ولئن كان هناك ساعة ورجع إلى ربه ليحسننٌ إليه. ثم يمضي في إعراضه وينأى بجانبه، فإذا مسّه الشر بعد ذلك عاد إلى الإكثار من دعائه.

ثم ختم بذكر ما يوجب عليهم أن يحتاطوا في أمرهم، فأخبرهم بأنه على تقدير أن يكون القرآن من عنده، يكون كفرهم به من أعظم موجبات العقاب. ثم ذكر أنه سيريهم ما أوعدهم به في الآفاق وفي أنفسهم. ويراد بالآفاق، والله أعلم، فتح البلاد المحيطة بهم، وبأنفسهم فتح مكة، وبهذا يتبين لهم أنه الحق: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾.



مكنونات سورة «فصّلت»(*)

١ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الآية ٢٦].

قيل: إنّ قائِلها أبو جهل. ذكره ابنُ عَسْكر.

٢ ـ ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الآية ٢٩].

قال عليُّ بنُ أبي طالب: هما إبليس، وابنُ آدم، الذي قتل أخاه. أخرجه ابنُ أبي حاتِم[1].

٣ ـ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الآية ٣٣].

قال الحَسَنُ: هو النبي (ص) أخرجه ابنُ أبي حاتم[2].

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِماتِ الأقران في مُبْهَمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) والطبري ٢٤ / ٧٢.

(٢) والطبري ٢٤ / ٧٥.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

لغة التنزيل في سورة «فصّلت»(*)

١ ـ قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾.

أقول: لمّا أنزلت السماء والأرض منزلة الآدميّين، وذلك ظاهر من الآية في إسناد القول لهما، وُصِفَتا بصفة العقلاء فقيل: ﴿طَآئِعِينَ﴾، وهذه الصفة جمع مذكر للعاقل وهي منصوبة على الحال، وصاحبها مثنى، وهذا موطن هذه المسألة اللطيفة، ولا أستطيع أن أقول إلا أنّ هذا من أسلوب القرآن الذي اقتضت حكمته أن يأتي على هذه الصورة خدمة لهذا النظم البديع.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ [الآية ٢٤].

والمعنى: وإن يَسألوا العُتْبى، وهي الرجوع بهم إلى ما يحبّون، جزعاً ممّا هم فيه لم يُعْتَبوا، أي، لم يُعْطَوا العُتْبى، ولم يُجابُوا إليها.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [الآية ٥١].

وقوله تعالى: ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾، أي: ثنى عطفَهُ، وازوَرّ وتولّى بِرُكْنِهِ.

أقول: وفي قوله تعالى ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾، تصوير لحاله، وهو يتنكّر ويزوَرّ فيبتعد بِجَنْبِهِ إشارةً إلى رفضه.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

المعاني اللغوية في سورة «فصّلت»(*)

قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [الآية ٣] فالكتاب خبر المبتدأ، أخبر به أن التنزيل كتاب ثم قال سبحانه: ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الآية ٣] بشغل الفعل بالآيات حتى صارت بمنزلة الفاعل، فنصب «القرآن».

وقوله تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [الآية ٤] حين شغل عنه. وإن شئت جعلته نصباً على المدح، كأنه حينما أقبل سبحانه على مدحه فقال: «ذَكَرْنَا قرآناً عَرَبِيّاً بَشِيراً وَنَذِيراً» أوْ «ذَكَرْنَاهُ قُرآناً عَرَبِيّاً» وكان فيما مضى من ذكره دليل على ما أضمر، وقال تعالى: ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [الآية ٥] معناه، والله أعْلَمُ، «وبَيْنَنا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ»، ولكن دخلت «مِنْ» للتوكيد[1].

وأمّا نصب ﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ١٠﴾ فبجعله مصدراً كأنه قال «اسْتِواءً»[2] وقد قرئ بالجرّ[3] وجعل اسماً للمستويات أي: في أرْبَعَةِ أيامٍ تامَّةٍ.

وأما قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [الآية ٩] ثم قال: ﴿أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [الآية ١٠] فإنما يعني أن هذا مع الأول،

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) نقله في زاد المسير ٧ / ٢٤١.

(٢) النصب قراءة عاصم وحمزة كما في معاني القرآن ٣/ ١٢؛ وفي الطبري ٢٤/ ٩٨ الى عامة قراء الأمصار، إلاّ أبا جعفر، والحسن البصري، وأبا جعفر القارئ، وفي البحر ٧/ ٤٨٦.

(٣) في معاني القرآن ٣/ ١٢ نسبت الى الحسن، وفي الطبري ٢٤/ ٩٨ كذلك، وزاد في الجامع ١٥/ ٣٤٣ يعقوب الحضرمي، وفي البحر ٧/ ٤٨٦ زاد زيد بن علي، وابن أبي اسحاق، وعمرو بن عبيد وعيسى.

أربعة أيام، كما تقول «تَزَوَّجْتُ أمسِ امرأةً، واليومَ اثْنَتَيْنِ» وإحداهما التي تزوجتها أمس[1].

وقال تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ﴾ [الآية ١٢] كأنه سبحانه قد قال «وَحَفِظْنَاهَا حِفْظاً»، لأنه حين قال سبحانه:

﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ قد أخبر أنه نظر في أمرها، وتعاهَدَها، فهذا يدل على الحِفْظِ؛ كأن السياق: «وَحَفِظْنَاها حِفْظاً».

وقال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الآية ٢١] فجاء اللفظ بهم، مثل اللفظ في الإنس، لما خبر عنهم بالنطق والفعل، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾ [النمل/ ١٨] لمّا عَقِلْن وتكلّمْن صرْن بمنزلة الإنس في لفظهم، قال الشاعر [من الرجز وهو الشاهد الخامس والثلاثون بعد المئتين]:

فَصَبَّحَتْ والطَّيْرَ لَمْ تَكَلَّمِ
جَابِيَةً طُمَّتْ بِسَيْلٍ مُفْعَمِ[2]

وقال تعالى، حكاية على لسان الذين كفروا: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ [الآية ٢٦] أي: لا تطيعوه. كما تقول «سَمِعْتُ لكَ» وهو، والله أعلم، على وجه «لا تَسْمَعُوا القرآن». وقال تعالى ﴿وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ ٢٦﴾[3] من «لغوتُ» «يلغا» مثل «مَحَوتُ» «يَمْحا»[4] وقرأ بعضهم (والْغُوا فيه)[5] من «لَغَوْتَ» «تَلْغُو» مثل «مَحَوْتَ» «تَمْحُو» وبعض العرب تقول: «لَغِيَ» «يَلْغَى» وهي قبيحة قليلة[6] ولكن «لَغِي بِكَذا وكَذا»

---

(١) نقله في زاد المسير ٧/ ٢٤٤.

(٢) سبق للأخفش إيراد هذا الرأي، والكلام عليه فيما سبق مع ذكر هذا الشاهد.

(٣) هي قراءة نسبت في الجامع ١٥/ ٣٥٦ الى الجماعة، وفي البحر ٧/ ٤٩٤ الى جمهور القراء.

(٤) هي لهجة عقيل كما في اللهجات ٤٥٥، وقيل هي لهجة دوس، وهي بطن من شنوءة الازد «كالسابق ٤٥٦».

(٥) في المحتسب ٢/ ٢٤٦ نسبت الى ابي بكر بن حبيب السهمي، وفي الشواذ ١٣٣ الى عبد الله بن بكير الساعي، وابن أبي اسحاق وعيسى، وفي الجامع ١٥/ ٣٥٦ الى عيسى بن عمر، والجحدري، وابن ابي اسحاق، وابن حيوة، وبكر بن حبيب السهمي، وفي البحر ٧/ ٤٩٤ إلى بكر بن حبيب السهمي، أو عبد الله بن بكر السهمي، وقتادة، وأبي حيوة، والزعفراني، وابن ابي اسحاق، وعيسى، بخلاف عنهما.

(٦) لعلّها لهجة أهل العالية قياساً على قولهم «الهيت» في لهوت اللهجات ٤٥٥.

أي: أغرِي به، فهو يقوله ويَصْنَعُه.

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ﴾ [الآية ٢٨] بالرفع على الابتداء كأنه تفسير للجزاء.

وقال سبحانه: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾ [الآية ٣٠] أي بأن لا تخافوا.

وقال تعالى: ﴿نُزُلٗا﴾ [الآية ٣٢] على تقدير أن السياق قد شغل ﴿وَلَكُمۡ﴾ بـ ﴿مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ﴾ [الآية ٣١] حتى صارت بمنزلة الفاعل، وهو معرفة، وقوله تعالى: ﴿نُزُلٗا﴾ ينتصب على «أَنْزَلْنا نُزُلاً»[1] نحو قوله سبحانه: ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾ [الإسراء/٨٧] و[الكهف/٨٢] و[القصص/٤٦] و [الدخان/٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ﴾ [الآية ٣٤] يقال: «لا يَسْتَوِي عبدُ اللهِ وَلا زَيْدٌ» اذا أردت: لا يَسْتَوِي عبدُ اللهِ وَزَيْدٌ» لأنهما جميعاً لا يستويان. وان شئت قلت إن الثانية زائدة تريد: لا يَسْتَوِي عبدُ اللهِ وَزَيْدٌ.

فزيدت «لا» توكيداً كما قال سبحانه: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الحديد/٢٩] أي لأنْ يعلم. وكما قال تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١﴾ [القيامة].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ﴾ [الآية ٤١] فزعم بعض المفسّرين أن خبره ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ٤٤﴾؛ وقد يجوز أن يكون على الأخبار التي في القرآن، يستغنى بها كما استغنت أشياء عن الخبر، إذا طال الكلام وعرف المعنى، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾ [الرعد/٣١] وما أشبهه. وحدّثني شيخ من أهل العلم قال: «سمعت عيسى بن عمر[2] يسأل عمرو ابن عبيد[3]: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ﴾ أين خبره؟» فقال عمرو: «معناه في التفسير: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ﴾ كفروا به ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١﴾ فقال عيسى: «اجادت يا أبا عثمان».

---

(١) نقله في إعراب القرآن ٣/ ١٠٢٢.

(٢) هو عيسى بن عمر الثقفي، وقد مرت ترجمته.

(٣) هو عمرو بن عبيد، أبو عثمان البصري المتوفى سنة ١٤٤، وهو أحد العباد الزهاد، ترجم له في طبقات القراء ١/ ٦٠٢.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ [الآية ٤٤] أي هلاً فُصِّلَتْ آياتُهُ ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ﴾ (١) يعني القرآن و﴿وَعَرَبِىٌّ﴾ يعني الرسول (ص)، وقد قرئت من غير استفهام، وكلٌ جائز في معنًى واحد.

وقال تعالى: ﴿وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾ أيْ: فاستيقنوا، لأن «ما» هُهنا حرف، وليس باسم، والفعل لا يعمل في مثل هذا، فلذلك جعل الفعل مُلْغًى (٢).



(١) في معاني القرآن ٣/ ١٩ والكشاف ٤/ ٢٠٢ الى الحسن وفي التيسير ١٩٣ الى هشام وزاد عليهما في الجامع ١/ ٣٦٩ ابا العالية ونصر بن عاصم والمغيرة وابن عامر. ولعل ما جاء من الكتابة همزة واحدة في الاصل مقام على ما جاء في المحتسب ٢/ ٢٤٨ منسوباً الى عمرو بن ميمون من القراءة بالاستفهام وفتح العين نسبة الى العجم.

(٢) نقله في إعراب القرآن ٣/ ١٠٢٨.

لكل سؤال جواب في سورة «فصّلت»(*)

إن قيل ما الحكمة في زيادة «من» في قوله تعالى: ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ [الآية ٥] مع أن المعنى حاصل بالقول «وبيننا وبينك حجاب»؟

قلنا: لو قيل كذلك، لكان المعنى أن الحجاب حاصل وسط الجهتين، وأما بزيادة «مِنْ» فمعناه أن الحجاب ابتداؤه منا ومنك، فالمسافة المتوسطة بيننا وبينك مستوعبة بالحجاب لا فراغ فيها.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [الآية ٩]،

إلى قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [الآية ١٢] يدل على أن السموات والأرض وما بينهما خلقت في ثمانية أيام، وقال تعالى في سورة الفرقان ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ [الفرقان/٥٩] فكيف التوفيق بينهما؟

قلنا: معنى قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ ١٠﴾ [الآية ١٠] في تتمة أربعة أيام، لأن اليومين اللذين خَلَقَ سبحانه فيهما الأرض من جملة الأربعة، أو معناه: كل ذلك في أربعة أيام يعني خلق الأرض، وما ذكر بعدها، فصار المجموع ستة؛ وهذا لا اختلاف فيه بين المفسّرين.

فإن قيل: السمواتُ وما فيها أعظم من الأرض وما فيها، بأضعاف

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

مضاعفة، فما الحكمة في أن الله سبحانه خلق الأرض وما فيها في أربعة أيام، والسموات وما فيها في يومين؟

قلنا لأن السموات وما فيها من عالم الغيب، ومن عالم الملكوت، ومن عالم الأمر، والأرض وما فيها من عالم الشهادة والملك، وخلق الأول أسرع من الثاني. ووجه آخر، وهو أنه فعل ذلك ليعلم أن الخلق على سبيل التدريج والتمهيل في الأرض، وما فيها لم يكن للعجز عن خلقها دفعة واحدة، بل كان لمصالح لا تحصل إلاّ بذلك، ولهذه الحكمة خلق العالم الأكبر في ستة أيام، والعالم الأصغر وهو الإنسان في ستة أشهر.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى في وصف أهل النار: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۝٢٤﴾ [الآية ٢٤] مع أنهم إن لم يصبروا على عذاب النار، وجزعوا فالنار مثوًى لهم أيضاً؟

قلنا: فيه إضمار تقديره: فإن يصبروا أولا يصبروا، فالنار مثوًى لهم، على كل حال؛ ولا ينفعهم الصبر في الآخرة كما ينفع الصبر في الدنيا؛ ولهذا قيل الصبر مفتاح الفرج، وقيل من صبر ظفر. الثاني: أنّ هذا جواب لقول المشركين، في حثّ بعضهم لبعض على إدامة عبادة الأصنام: ﴿أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ [ص/٦] فقال الله تعالى: فإن يصبروا على عبادة الأصنام في الدنيا، فالنار مثوًى لهم في العُقبى.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى في وصف الكفار: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢٧﴾ أي بأسوأ أعمالهم، مع أنهم يجزون بِسَيِّئِ أعمالهم أيضاً؟

قلنا: قد سبق نظير هذا السؤال في آخر سورة التوبة، والجواب الأول هناك يصلح جواباً هنا.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله تعالى: ﴿وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ [الآية ٣٧] بعد قوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ﴾ [الآية ٣٧] وهو مستفاد من الأول بالطريق الأولى؟

قلنا: فائدته ثبوت الحكم بأقوى الدليلين، وهو النص، والله أعلم.

المعاني المجازية في سورة «فصّلت»(*)

في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [الآية ٥] استعارة: فالأكنّة جمع كِنان، وهو الستر والغطاء، مثل: عِنان، وأعْنة. وسِنان، وأسنّة.

وليس هناك على الحقيقة شيء ممّا أشاروا إليه. وإنّما أخرجوا هذا الكلام، مُخرَج الدلالة على استثقالهم ما يسمعونه من قوارع القرآن، وبواقع البيان. فكأنهم، من قوة الزّهادة فيه، وشدّة الكراهية له، قد وَقِرت أسماعُهم عن فهمه، وأكِنّتْ قلوبُهم دون علمه.

وذلك معروف في عادات الناس، أن يقول القائل منهم لمن يُشْنَأ كلامه، ويُسْتثقل خطابه: ما أسمع قولك، ولا أعي لفظك. وإن كان صحيحَ حاسّةِ السمع. إلا أنه حَمَل الكلام على الاستثقال والمقْتِ.

وعلى هذا قول الشاعر[1]:

وكلام سَيِّئٍ قد وَقَرَتْ أذني عنه، وما بي من صَمَمْ

وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١)﴾ استعارة. فليس هناك، على الحقيقة، قول ولا جواب، وإنما ذلك عبارة عن

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) لم أهتد إلى اسم هذا الشاعر، وقد ورد هذا البيت في «أساس البلاغة» للزمخشري مادة «وقر» ولم يذكر قائله. وروايته في الأساس هكذا:

كم كلام سيّئ قد وقرت أذني عنه، وما بي من صمم

سرعة تكوين السماوات والأرض. كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل] ولو لم يكن المراد ما ذكرنا لكان في هذا الكلام أمر للمعدوم، وخطاب لغير الموجود. وذلك يستحيل أن يكون من فعل الحكيم سبحانه.

ومعنى قوله تعالى: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ أنهما جَرَتا على المراد، ووقفتا عند الحدود والأقدار، من غير معاناة طويلة، ولا مشقة شديدة، فكانت في ذلك جارية مَجرى الطائع المميِّز، إذا انقاد إلى ما أُمِرَ به، ووقَف عند الذي وقف عنده.

وقال بعضهم: معنى قوله سبحانه: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي: كونا على ما أريد منكم من لين وشدّة، وسهل وحُزونةٍ، وصَعْبٍ وذَلُولٍ، ومُبْرَمٍ وسَحِيلٍ[1].

والكُرْهُ والشِّدّةُ بمعنًى واحد في اللغة العربية. يقول القائل منهم لغيره: أنا أكْرَه فراقكَ. أي يَصْعُب عليَّ أن أفارقك.

وقال سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة/٢١٦] أي شديدٌ عليكم. ومعنى الطوع هٰهنا: التَّسَهُّلُ والانقياد من غير إبطاء ولا اعتياص.

وإنما قال سبحانه: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ بجعل السماوات والأرض كلّها كالواحدة، والأرض جميعاً كذلك، فَحَسُنَ أن يُعَبِّر عنهما بعبارة الاثنين دون عبارة الجميع.

وأمّا قوله سبحانه: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ فكان وَجْه الكلام أن يكون طائعتين، أو طائعات ردّاً على معنى التأنيث. فالمراد به، والله أعلم، عند بعضهم: قالتا أتينا بمن فينا من الخَلْق طائعين. فكانت كلمة «طائعين» وَصْفاً للخلق المميّزين، لا وصفاً للسماوات والأرض.

وقال بعضهم: لمّا تَضَمَّن الكلامُ ذِكْرَ السماوات والأرض في الخطاب لهما، والكناية عنهما بما يخَاطَبُ به أهل التمييز، ويُكْنَى به عن السامعين الناطقين، أُجرِيَتا في ردّ الفعل إليهما مُجْرَى العاقل اللبيب، والسامع المجيب. وذلك مثل قوله تعالى:

(١) المُبْرَم: الخيط أو الحبل الذي فُتِلَ فتلتين، والسَّحيل: الحبل الذي فتل فتلاً واحداً.

﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ۝﴾ [يوسف]. ولو أجري اللفظ على حقيقته، وحُمِل على محجَّته لقيل ساجدات. ولكن المراد بذلك: أنه، لما كان ما أشرنا إليه، حَسُنَ أن يُقال ساجدين، وطائعين.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [الآية ١٧] استعارة. والمراد بالعمى هٰهنا ظلام البصيرة، والمتاه في الغواية. فإن ذلك أخفُّ على الإنسان، وأشد ملاءمة للطباع، مِن تحمّل مشاقّ النظر، والتلجيج في غمار الفكر.

وفي قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ۝﴾ استعارة: لأن الظن الذي ظنّوه على الحقيقة لم يُرْدِهِمْ بمعنى: يُهْلِكهم، وإنّما أهلكهُمُ الله سبحانه جزاء على ما ظنّوه به من الظنون السّيئة، ونَسَبُوه إليه من الأفعال القبيحة. فلمّا كان ذلك الظنّ سبباً في هلاكهم، جاز أن يُنسَب إليه الهلاك الواقع بهم.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الآية ٣٩] استعارة، وقد مضى الكلام على نظيرها في سورة «الحج». إلا أن هٰهنا زيادة هي صفة الأرض بالخشوع، كما وُصفت هناك بالهمود. واللفظانِ جميعاً يرجعان إلى معنًى واحد، وهو ما يظهر على الأرض من آثار الجدب، وأعلام المحل، فتكون كالإنسان الخاشع الذي قد سكنتْ أطرافُه، وتَطَأطأ استشرافُه.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝﴾ استعارة. وقد قيل فيها أقوال: منها أن يكون المراد بذلك أن هذا الكتاب العزيز، لا يشبهه شيء من الكلام المتقدم له، ولا يشبهه شيء من الكلام الوارد بعده. فهذا معنى: ﴿مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ لأنه لو أشبهه شيء من الكلام المتقدِّم، أو الكلام المتأخِّر، لأبطَلَ معجزتَهُ وفَصَمَ حجَّتَهُ. فكأنَّ الباطل، قد أتاه من إحدى الجهتين المذكورتين، إمّا من جهة أمامِه، وإمّا من جهة ورائه. وهذا معنًى عجيب.

وقال بعضهم: معنى ذلك أنّه لا تَعلَقُ به الشُّبهةُ من طَريقِ المشاكلة، ولا الحقيقة من جهة المناقضة، فهو

الحقّ الخالص الذي لا يشوبه شائب، ولا يلحقه طالب.

وقال بعضهم: معنى ذلك أن الشيطان والإنسان لا يقْدِران على أن ينتقصا منه حقّاً، أو أن يزيدا فيه باطلاً.

وقال بعضهم: معنى ذلك، أنه لا باطل فيه، من الإخبار عمّا كان وما يكون. فكأنّ المراد بقوله سبحانه: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي من جهة ما أخبر عنه من الأمور الواقعة. وبِقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أي من جهة ما أخبر عنه من الأمور المتوقعة.

وفي قوله سبحانه: ﴿أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴿٤٤﴾﴾ استعارة. والمراد بها، والله أعلم، صفتُهم بالتباعد عن طريق الرشد، والإعراض عن دُعاء الحق. كأنهم من شدة الذهاب بأسماعهم، والانصراف بقلوبهم يُنَادَوْنَ من مكان بعيد. فالنداء غير مُسْمِع لهم، ولا واصلٌ إليهم. ولو سمِعُوه لَضلَّ عنهم فَهْمُهُ للصدْ[1] المُنْفَرِج بينهم وبينه.

وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴿٥١﴾﴾ استعارة. والمراد بها صفة الدعاء بالسّعة والكثرة، وليس يراد العرض الذي هو ضدٌّ للطّول. وذلك أنّ صفة الشيء بالعرض تفيد فيه معنى الطول؛ لأنه لو لم يكن مع العرض طولٌ لكان العرض هو الطُولَ. ألا ترى أنهم يصفون الرُمْحَ بالطول، ولا يصفونه بالعرض إذ كان طولُهُ أضعاف عرضه، ويصفون الإزار بأنه عريض إذ كان عرضه مقارباً لطوله.

وقد استقصينا شرح ذلك في كتابنا الكبير واقتصرنا منه ههنا على البُلغة الكافية، والنكتة الشافية.

---

(١) غير واضحة بالأصل، ولعلها للبعد.



سورة الشّورىٰ
٤٢

أهداف سورة «الشورى»(*)

سورة «الشورى» سورة مكّية، نزلت بعد «الإسراء»، وقبيل الهجرة.

وآياتها ٥٣ آية نزلت بعد سورة «فصلت».

ولها اسمان: «عسق» لافتتاحها بها، وسورة «الشورى» لقوله سبحانه:

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الآية ٣٨].

روح السورة

هذه السورة، تعالج قضية العقيدة كسائر السور المكية، ولكنها تركّز بصفة خاصة على حقيقة الوحي والرسالة؛ حتى لَيَصحُّ أن يقال إن هذه الحقيقة، هي المحور الرئيس، الذي ترتبط به السورة كلّها.

وتأتي سائر الموضوعات فيها، تَبَعاً لتلك الحقيقة الرئيسة فيها.

هذا، مع أن السّورة تتوسّع في الحديث عن حقيقة الوحدانية؛ وتعرض لها من جوانب متعدّدة؛ كما أنها تتحدث عن حقيقة القيامة والإيمان بها؛ ويأتي ذكر الآخرة ومَشَاهِدِها في مواضع متعددة منها؛ وكذلك تتناول عَرْضَ صفات المؤمنين، وأخلاقَهم التي يمتازون بها؛ كما تُلمّ بقضية الرزق، بَسْطِه وقَبْضِه، وصفة الإنسان في السّرّاء والضَّرّاء. ولكنّ حقيقة الوحي والرسالة وما يتصل بها، تظل مع ذلك هي الحقيقة البارزة في محيط السورة، والتي تطبعها وتُظلّلها، وكأنّ سائر الموضوعات الأخرى، مسوقة

(*) انتُقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

لتقوية تلك الحقيقة الأولى، وتوكيدها.

ويسير سياق السورة في عَرْض تلك الحقيقة، وما يصاحبها من موضوعات أخرى، بطريقة تدعو إلى مزيد من التدبُّر والملاحظة، «فهي تعرض من جوانب متعددة، يفترق بعضها عن بعض، ببضع آيات، تتحدث عن وحدانية الخالق، أو وحدانية الرازق، أو وحدانية المتصرّف في القلوب، أو وحدانيّة المتصرّف في المصير، في حين أنّ الحديث عن حقيقة الوحي والرسالة يتّجه إلى تقرير وحدانية الموحي، سبحانه، ووحدة الوحي، ووحدة العقيدة، ووحدة المنهج والطريق؛ وأخيراً وحدة القيادة البشرية في ظل العقيدة.

ومن ثَمّ يرتسم في النفس خط الوحدانية بارزاً واضحاً بشتّى معانيه وشتى إيحاءاته من وراء موضوعات السورة جميعها»(*).

موضوع السورة

يمكن أن نقسم سورة الشورى إلى فصلين رئيسين. يتناول الفصل الأول وحدة الأهداف الرئيسية للرسالات السماوية، ويتناول الفصل الثاني بعض صفات المؤمنين ودلائل الإيمان.

الفصل الأول: وحدة أهداف الرسالات

يتناول النصف الأول من السورة الآيات [١ ـ ٢٤]، ويبدأ بالتحدّث عن الوحي، ثم يعالج قصّة الوحي منذ النبوّات الأولى، ليقرّر وحدة الدّين ووحدة المنهج، ووحدة الطريق، وليعلن القيادة الجديدة للبشريّة ممثلّة في رسالة محمد (ص)، وفي العصبة المؤمنة بهذه الرسالة.

***

وتشير السورة إلى هذه الوحدة في مطلعها:

﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣﴾، لتقرّر أن الله سبحانه هو الموحي بالرسالات جميعها للرسل جميعهم، وأنّ الرّسالة الأخيرة، هي امتداد لأمر مقرّر مطّرد من قديم.

وتأتي الإشارة الثانية بعد قليل:

(*) في ظلال القرآن بقلم سيد قطب ٧/٢٤.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الآية ٧]، لتقرر مركز القيادة الجديد، فقد اختار الله جلّ جلاله بلاد العرب، لتكون مقر الرسالة الأخيرة، التي جاءت للبشرية جمعاء، والتي تتضح عالميّتها منذ أيامها الأولى.

كانت الأرض المعمورة، عند مولد الرسالة الأخيرة، تكاد تتقاسمها إمبراطوريات أربع هي:

الرومانية، والفارسية، والهندية، والصينية.

وفي هذا الوقت، جاء الإسلام لينقذ البشرية كلها، ممّا انتهت إليه من انحلال وفساد واضطهاد، وجاهلية عمياء في كل مكان من المعمورة.

جاء ليهيمن على حياة البشرية، ويقودها في الطريق الى الله، على هدًى ونور.

ولم يكن هنالك بدّ من أن يبدأ الإسلام رحلته من أرض حرّة، لا سلطان فيها لإمبراطورية من تلك الإمبراطوريات، وكانت الجزيرة العربية وأمّ القرى وما حولها بالذات، أصلح مكان على وجه الأرض، لنشأة الإسلام يومئذ، وأصلح نقطة، يبدأ منها رحلته العالميّة.

لم تكن في بلاد العرب حكومات منظّمة، ولا ديانة ثابتة واضحة المعالم، وكانت خلخلة النظام السياسي للجزيرة، إلى جانب خلخلة النظام الديني، أفضل ظرف يقوم فيه دين جديد، متحرر من كل سلطان عليه في نشأته.

وهكذا جاء القرآن الكريم بلسانٍ عربيٍّ مبين، لينذر أم القرى ومن حولها؛ فلمّا خرجت الجزيرة من الجاهلية إلى الإسلام، حملت الراية وشرّقت بها وغرّبت، وقدّمت الرسالة للبشرية جميعها، وكان الذين حملوها أصلح خلق الله لحملها، وقد خرجوا بها من أصلح مكان في الأرض لميلادها؛ وهكذا تبدو سلسلة طويلة من الموافقات المختارة لهذه الرسالة:

﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام/ ١٢٤].

وفي آية مشهورة من سورة الشورى، تطالعنا وحدة الرسالات جميعها، ووحدة الرسل، ووحدة الدين، ووحدة الهدف للجميع، وهو توحيد الله سبحانه، وتدعيم القيم والأخلاق،

ومحاربة الرذائل والانحراف. قال تعالى:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾.

وتقرّر الآيات بعد ذلك أن التفرّق قد وقع مخالفاً لهذه التوصية، ولم يقع عن جهل من أتباع أولئك الرسل الكرام، ولكن عن علم. وقع بغياً وحسداً:

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [الآية ١٤].

وتصف أتباع الأديان، وحملة الكتب السماوية بأنّهم في حَيْرة وشكّ، لاضطراب أحوال الديانات، وخروجها عن الهدف الذي جاءت له:

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾.

وعند هذا الحدّ يتبين أن البشرية قد آلت إلى فوضى وارتياب، ولم تعد لها قيادة راشدة تقوم على نهج ثابت قويم. ثمّ يعلن القرآن الكريم انتداب الرسالة الأخيرة وحاملها (ص)، لهذه القيادة:

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

الفصل الثاني: صفات الجماعة المسلمة

يشتمل النصف الثاني من السورة، على الآيات [٢٥ ـ ٥٣]. ويتحدّث عن صفات الجماعة المسلمة، التي انتدبها الله تعالى لحمل هذه الرسالة؛ ويبدأ هذا الفصل باستعراض آيات الله في بسط الرزق وقبضه، وفي تنزيل الغيث برحمته، وفي خلق السماوات والأرض، وما بثّ فيهما من دابّة، وفي الفُلْك الجواري في البحر كالأعلام، ويستطرد السياق من هذه الآيات إلى صفة المؤمنين التي تميز جماعتهم، ومع أن سورة الشورى سورة مكّية، نزلت قبل قيام الدولة الإسلامية في المدينة، إلا أنها تَذْكر أن الشورى من صفات المؤمنين، في قوله تعالى:

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الآية ٣٨].

مما يوحي بأن وضع الشورى أعمق،

في حياة المسلمين، من مجرّد أن يكون نظاماً سياسياً للدولة، فهو طابع أساسي للجماعة كلها، يقوم على أمرها كجماعة، ثم يتسرب من الجماعة إلى الدولة، بوصفها ممثّلة للجماعة.

والتأمّل في صفات المؤمنين، يوحي بأن الإسلام دين القِيَم، دينٌ يهتم بالجوهر لا بالعَرَض، وبتكوين النفس البشرية لا بالقِيَم الزائلة.

فما قِيَم الجماعة المؤمنة؟

إنها الإيمان، والتوكل، واجتناب كبائر الإثم والفواحش، والمغفرة عند الغضب، والاستجابة لله، وإقامة الصلاة، والشورى الشاملة، والإنفاق ممّا رَزَق الله، والانتصار من البغي، والعفوُ والإصلاح والصبر.

وبهذه القيم تحوّل العرب من أشتات مختلفين إلى أمّة متماسكة، متراحمة مؤمنة بالله مستقيمة على هداه وتعاليمه، فوطّأ الله لهم أكناف الأرض، وصاروا خير أمة أُخرجت للناس.

وبعد تقرير صفة المؤمنين، وما ينتظرهم من عَوْن وإنعام؛ تعرض الآيات في الصفحة المقابلة، صورة الظالمين الضالّين، وما ينتظرهم من ذلّ وخسران في يوم القيامة:

﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾.

وفي ظل هذا المشهد، نجد القرآن الكريم، يدعو الناس إلى إنقاذ أنفسهم من مِثْل هذا الموقف، قبل فوات الأوان:

﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ [الآية ٤٧].

ويمضي سياق السورة حتى ختامها، يدور حول محور الوحي والرسالة، وأثرهما في صفات المؤمنين، مع بعض الاستطراد إلى وصف الكافرين، وبيان صفات الله الخالق الوهّاب، القابض الباسط، قال تعالى:

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾.

ويعود السياق في نهاية السورة، إلى الحديث عن طبيعة الوحي وطريقته. وهناك ارتباط ظاهر بين الحديث عن

الوحي في القسم الأول من السورة، والحديث عن صفات المؤمنين، ودلائل الإيمان في القسم الثاني منها؛ فإنّ الهداية والإيمان من آثار الوحي، وبركات الرسالة؛ أي أن القسم الثاني، وهو السلوك، مترتّب عن القسم الأول، وهو العقيدة والوحي.



ترابط الآيات في سورة «الشورى»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة «الشُورى» بعد سورة «فصّلتْ»، ونزلت سورة «فصلت» بعد الإسراء، وقبيل الهجرة، فيكون نزول سورة «الشورى» في هذا التاريخ أيضاً.

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨)﴾ وتبلغ آياتها ثلاثاً وخمسين آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السورة: بيان اتفاق الرّسل على شرع الإسلام من أوّلهم إلى آخرهم، وإنذار مَنْ يخالفه بعذاب الدنيا والآخرة، وتبشير من يؤمن به بحسن الثواب فيهما. وبهذا تتفق، هي والسورة السابقة، في ما جاء فيهما من الترهيب والترغيب، مع ما فيها من أخذهم بشيء من طريق الدليل، وهذا هو وجه المناسبة بين السورتين.

اتفاق الرّسل على شرع الإسلام الآيات [١ ـ ٥٣]

قال الله تعالى: ﴿حم (١) عسق (٢) كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣)﴾ فمهّد لذلك بأن الذي يوحي إلى الرسول (ص) وإلى الرسل قبله، إلهٌ واحد، هو العزيز الحكيم؛ وذَكَرَ ما ذَكَر من سعة ملكه سبحانه، وعلوّه وعظمته جلّ جلاله،

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفني في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجمايز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

وأنّ السماوات تكاد تتفطّر من خشيته، والملائكة يسبّحون بحمده؛ وهدّد مَنْ يتخذ مِنْ دونه أولياء بأنه رقيب عليهم، وسيحاسبهم على شِرْكهم؛ ثم ذكر سبحانه أنه أوحى إليه قرآناً عربياً لينذر به أهل مكة، ومن حولهم بعذاب يوم القيامة، وهو اليوم الذي يجتمعون فيه، فيكون فريق منهم في الجنة وفريق في السعير؛ ولو شاء الله تعالى، لجعلهم أُمّةً واحدة، ولكن مشيئته، سبحانه، اقتضت أن يُدخِلَ من يشاء في رحمته، وأن يحرم من يشاء منها؛ ومن يحرمه منها لا يمكن أن يدخله فيها، ما يتخذه من وليّ أو نصير؛ ثم أنكر عليهم أن يتخذوا من دونه أولياء لا يمكنهم نصرهم: لأنه سبحانه هو الوليّ وحده؛ وذكر أن ما اختلفوا فيه من ذلك، فحكْمُهُ إليه في يوم القيامة، وليس لأحد من خلقه الحكم فيه، بل يجب تفويض كل شيء إليه، لأنه فاطر السماوات والأرض؛ إلى غير هذا مما استدلّ به على وجوب تفويض الأمر إليه.

ثم انتقل السياق من ذلك التمهيد إلى المقصود، وهو أنه سبحانه شرع لهم، من الدين، ما وصّى به نوحاً وإبراهيمَ وموسى وعيسى (ع)؛ وذلك ما اتفقت عليه شرائعهم، من الإيمان بالله واليوم الآخر، ونحوهما مما لا اختلاف فيه بينهم. وذكر السياق توبيخ المشركين أن يستبعدوا ما يدعوهم الله إليه من هذا الدين، الذي اتفق الرسل عليه، ثم ذكر أنّ أتباع أولئك الرُّسل لم يتفرّقوا في ذلك الدين إلاّ من بعد ما جاءهم العلم بَغْياً بينهم؛ ولولا حكم الله بتأخير الفصل بينهم إلى يوم القيامة، لَفَصل بينهم في الدنيا؛ ثم أمر الله سبحانه النبي (ص) أن يستمر في دعوته إلى هذا الدين، فلا يتّبع أهواءهم المتفرّقة، ولا يؤمن ببعض الكتاب دون بعض. وليعدلَ بينهم في الحكم لأنّ إلهه وإلههم واحد، وكلّ واحد مسؤول عن عمله، والله هو الذي سيحكم بينهم، ثم ذكر أن الذين يحاجُّون في دين الله من بعد اتفاق أولئك الرسل عليه، حجّتهم داحضة، وعليهم غضب منه جلّ جلاله، ولهم عذاب شديد؛ وأنه، سبحانه، أنزل الكتاب بهذا الدين الحق، وأنزل الميزان، وهو العقل الذي يميّز بين الحق والباطل، فلا عذر لهم في تَباطُئِهم عن الإيمان به، ولعلّ السّاعة تفاجئهم وهم على كفرهم، فيندمون حينما لا ينفع الندم؛ ثم ذكر

أن الذين لا يؤمنون بها يستعجلون بها على سبيل الاستهزاء، وأن الذين يؤمنون بها مشفقون أن تفاجئهم، وأنه لا يؤخرها إلاّ لأنّه لطيف بعباده، يرزق من يشاء وهو القوي العزيز. فمن كان يريد حَرْث الآخرة يُزِدْ له في حرثه، ومن كان يريد حرث الدنيا يُؤْتِهِ منها ويمهله ولا يعجّله، وما له في الآخرة من نصيب.

ثم انتقل السياق إلى توبيخهم، على ما شرّعوا لأنفسهم من الشرك وإنكار البعث، ونحو ذلك، مما زيّنه لهم شركاؤهم من الشياطين؛ وهدّدهم سبحانه بأنّه لولا حُكْمُهُ بتأخير عذابهم إلى يوم القيامة لعجّل بالقضاء بينهم؛ وأنذرهم بأن لهم عذاباً أليماً على ما شرعوه من ذلك لأنفسهم، وبشّر المؤمنين بروضات الجنات التي أعدّها جلّت قدرته لهم، وانتقل السياق من هذا إلى توبيخهم، على أن ينسبوا الى النبي (ص) افتراء هذا الدين عليه، وذكر سبحانه أنّه لو يشاء ختم على قلبه، وتولّى هو محو الباطل وإحقاق الحق بآياته؛ ولكنّه أراد أن يحذرهم بإرساله إليهم، رحمة بهم، ليتوب عن شركه من يتوب فيقبل توبته، ويستجيب دعاء المؤمنين ويزيدهم من فضله؛ ومن يستمرّ على كفره بعد ذلك، فلهم عذاب شديد في دنياهم وآخرتهم؛ ثم ذكر أنه في رحمته بهم يرزقهم بقدر، لأنّهُ، لو بسط لهم الرزق، لَبَغَوْا في الأرض؛ وبيّن أنهم إذا احتاجوا إلى الرزق فإنه لا يمنعهم منه، فينزل الغيث عليهم من بعد يأسهم منه، وينشر عليهم رحمته. وقد ذكر بعد هذا آياته ونِعَمَه عليهم، وذكر ما يصيبهم في دنياهم، أو في ما ينعم به عليهم، ليبيّن أن ذلك قد يكون بما كَسَبت أيديهم؛ ثم ذكر سبحانه أن ما يعْطَوْنَه من الرزق في الدنيا لا قيمة له، وأن ما عنده خير وأبقى للمؤمنين الذين يتوكّلون عليه، والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، ويَغفُون عند غضبهم، إلى غير هذا مما ذكره سبحانه من صفاتهم؛ ثم انتقل السياق من هذا إلى وعيد من يضلّ عن ذلك الدين القديم، فذكر سبحانه أنهم حين يرون العذاب، يتمنّون أن يُرَدُّوا ليؤمنوا به، إلى غير هذا مما ذكره من أحوالهم.

ثم ختم السورة بأمرهم أن يستجيبوا لربّهم فيما شرع لهم من ذلك الدين، من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له منه، ولا

يكونَ لهم ملجأ من عذابه. فإن أعرضوا عن ذلك فليس على النبي (ص) شيء من إعراضهم، لأنه قام بما كُلِّف به من تبليغهم؛ ثم ذكر السياق أن السبب في إعراضهم ما هم فيه من غرور وجهل. فإذا أصابتهم رحمة فرحوا بها وأبطرتهم، وإذا أصابتهم سيئة بلغ الكفر مبلغه منهم؛ ثم خطَّأهم في غرورهم بما يملكون في دنياهم، لأن كلّ شيء ملك لله جلّ جلاله، وكل ما في أيدينا هبة منه وحده سبحانه ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾.

ثم انتقل السياق من ذلك إلى إثبات ما أنكروه من الوحي، بأنه ما كان لِبَشَرٍ أن يكلّمَهُ الله إلاّ وَحْياً أو مِنْ وراءِ حجاب، أو بوساطة مَلَك، وأنّه تعالى أوحى إلى الرسول (ص) روحاً من أمره، وما كان الرسول (ص) يدري قبله ما الكتاب ولا الإيمان، وأنّه يهدي من ذلك إلى صراط مستقيم ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾.

مكنونات سورة «الشورى»(*)

١ ـ ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا﴾ [الآية ٤٩].

قال البَغوي[1]: كلُوط (ع).

٢ ـ ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ۝٤٩﴾.

قال: كإبراهيم (ع) لم يُولَدْ له أنثى.

٣ ـ ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ [الآية ٥٠].

قال: كمحمّد (ص)

٤ ـ ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ [الآية ٥٠].

قال: كيحيى وعيسى (ع).

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِماتِ الأقران في مُبْهمات القرآن» للسُيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) في «معالم التنزيل» ٧/ ٣٨٣. بهامش «ابن كثير».



لغة التنزيل في سورة «الشورى»(*)

١ ـ قال تعالى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ [الآية ٣٤].

أي: يُهلكهنّ.

أقول: آثرت أن أقف على هذا الفعل الذي لا نعرف منه في اللغة المعاصرة إلاّ الوصف وهو «الموبقات»، والموبقات في استعمال المعاصرين الأعمال الشائنة كالزّنى ونحوه.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾.

والنكير: الإنكار، أي: ما لكم من مخلّص من العذاب.

والغالب في المصدر على «فعيل» أن يدل على صوت نحو الصريخ والعويل والهديل، وغير ذلك كثير.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المعاني اللغوية في سورة «الشورى»(*)

قال تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الآية ١٣].

على التفسير كأنه سبحانه قال «هو أنْ أَقِيمُوا الدين» على البدل.

وقال تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الآية ١٥] أي: أُمِرْتُ كي أعدل.

وقال سبحانه: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الآية ٢٣] استثناء خارج. يريد، والله أعلم، إلاّ أنْ أذكر مودة قرابتي.

وأمّا ﴿يُبَشِّرُ﴾ [الآية ٢٣] من «بشّرْتُه» و «أبشَرْتُه»، وقال بعضهم «أَبْشُرُهُ» خفيفةً، فذا من «بَشَرْتُ»[1] وهو في الشعر. قال الشاعر [من البسيط وهو الشاهد السادس والستون بعد المئتين]:

وَقَدْ أَرُوحُ إِلَى الحَانُوتِ أَبْشُرُهُ
بالرَّحْلِ فوقَ ذُرَى العَيْرانَةِ الأُجُدِ

قال أبو الحسن[2] «أنشدني يونس[3] هذا البيت هكذا. لذلك فـ (الذي يَبْشُرُ) اسما للفعل كأنه «التَّبْشِير»، كما قال تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر/٩٤] أي اصدع بالأمر. ولا يكون أن تضمر فيها الباء، وتحذفها لأنكَ لا

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) في التيسير ١٩٥ الى غير نافع، وعاصم، وابن عامر، وفي البحر ٧/ ٥١٥ إلى عبد الله بن يعمر، وابن أبي إسحاق، والجحدري، والأعمش، وطلحة، في رواية، والكسائي وحمزة؛ أمّا قراءة التضعيف ﴿يُبَشِّرُ﴾ وعليها رسم المصحف، فهي في التيسير إلى نافع، وعاصم، وابن عامر، وفي البحر إلى الجمهور.

(٢) هو الأخفش المؤلف.

(٣) هو يونس بن حبيب، وقد مرت ترجمته.

تقول: «كَلِّم الذِي مَرَرْتَ» وأنت تريد «به».

وقوله تعالى:

﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الآية ٢٦]

أي: استجاب فجُعِلُوا الفاعلين.

وقال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾.

أمّا اللام التي في ﴿وَلَمَن صَبَرَ ﴿٤٣﴾﴾ فلام الابتداء، وأمّا ذلك فمعناه، والله أعلم، إن ذلك منه لمن عزم الأمور. وقد تقول: «مَرَرْتُ بدارِ الذراعُ بِدِرْهَمٍ» أي: «الذراع منها بِدِرْهَم»، و«مررت بِبُرٍّ قفيزٌ بدرهم» أي: «قفيزٌ منه» وأمّا ابتداء «إنّ» في هذا الموضوع فكمثل ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة/ ٨].

وقال تعالى: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴿٤٥﴾﴾ [الآية ٤٥] بجعل (الطَّرْفِ) العينَ كأنه سبحانه قال «ونظرهم من عين ضعيفة»، والله أعلم. وقال يونس: إنّ ﴿مِن طَرْفٍ﴾ مثل: «بِطَرْفٍ» كما تقول العرب: «ضربتُه في السَّيْف» و«بِالسَّيْفِ»[1].

وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ لأن الله تبارك وتعالى، يتولّى الأشياء دون خلقه يوم القيامة، وهو سبحانه في الدنيا قد جعل بعض الأمور إليهم، من الفقهاء والسلطان وأشباه ذلك[2].

(١) نقله في الجامع ١٦/ ٤٦.

(٢) نقله في إعراب القرآن ٣/ ١٠٤٩.

لكل سؤال جواب في سورة «الشورى»(*)

قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣﴾.

ـ ما الحكمة من قوله تعالى ﴿يُوحِيٓ﴾ والوجه الظاهر أن يقال: «أوحى»؟

* إنما قال ذلك ليدل على أن إيحاء مثل القرآن الكريم من عادته سبحانه.

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [الآية ١٦].

ـ الوجه المعهود ان يقال «حجتهم مدحوضة»، أي ضعيفة وزالقة وزالّة وغير متماسكة، وأن يقال: «شبهتهم داحضة»، فلِمَ قال تعالى: ﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ﴾.

* إنما قال تعالى: ﴿دَاحِضَةٌ﴾ ليكون أبلغ في ضعف سنادها، وَوَهاء عمادها، فكأنها هي المبطلة لنفسها من غير مبطلٍ أبطلها، لظهور أعلام الكذب فيها، وقيام شواهد التهافت عليها.

وإنما قال سبحانه: ﴿حُجَّتُهُمۡ﴾ ولم يقل: «شبهتهم» لاعتقادهم أنّ ما أدلوا به حجة، ولتسميتهم لها بذلك في حال النزاع والمناقلة.

وقال جلّ من قائل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ۝٢٠﴾.

ـ لِمَ عبر سبحانه بالحرث عن نفع الدنيا ونفع الآخرة؟

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أضواء على متشابهات القرآن»، للشيخ خليل ياسين، دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٠م.

* لأن حرث الآخرة والدنيا كَدْحُ الكادح لثواب الآجلة، وحطام العاجلة، وذلك لأن الحارث المزدرع إنّما يتوقع عاقبة حرثه فيجني ثمرة غراسه، ويفوز بعوائد ازدراعه، كما قال الشريف الرضي.

ولِمَ قال سبحانه: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ [الآية ٢٠] ولم يقل، منه؟

* إنما صح تأنيث الضمير لأن لفظة «حرث» في معرض الحذف، ويصح حلول ما بعدها محلها، فيكون الضمير عائداً على الجزء الثاني وهو «الدنيا» فكأنه سبحانه قال «من كان يريد الدنيا نؤته منها» ويدل عليه قول ابن مالك في منظومته:

وربما أكسب ثانٍ أوّلا

تأنيثه إن كان حذف موهلا

وكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف] أي إن الله قريب.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾.

ـ ما هي كلمة الفصل التي منعت من القضاء بينهم؟

* كلمة الفصل هي القضاء السابق، بتأجيل العقوبة لهذه الأمة، الى الآخرة، وهي الكلمة الواردة في [يونس/١٩] و [هود/١١٠]، و [طه/١٢٩]: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾.

وقال: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الآية ٢٣].

ـ من هم هؤلاء وما هي مودتهم، وما معنى ﴿فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾؟

* أما قوله تعالى ﴿فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فمعناه أنهم جُعِلُوا مكاناً للمودة ومقرّاً لها، كقولك: لي في آل فلان مودة، ولي فيهم هوًى وحبّ. وأما أهل القربى، فهم عليٌ وأبناؤه الميامين عليهم السلام، وفي ذلك تواترت الأحاديث عن الرسول (ص) نذكر بعضاً منها تيمّناً، عن الكشاف، والصواعق المحرقة وغيرهما.

روي أنه لما نزلت، قيل يا رسول الله: من قرابتك هؤلاء الذين وَجَبَت علينا مودتهم، قال هم علي وفاطمة وابناهما.

وورد عنه (ص) أنه قال: ألا ومن

مات على حبّ آل محمّد فتح له الى الجنة بابان؛ ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشمّ رائحة الجنّة. يقول الإمام الشافعي رضي الله عنه:

يا آلَ بَيْتِ رسولِ اللهِ حُبُّكُمُ
فَرضٌ من اللهِ في القرآنِ أنزلَهُ
كفاكُمُ مِنْ عظيمِ الفخرِ أنّكُمُ
مَنْ لَمْ يُصَلِّ عَلَيْكُمْ لا صلاةَ لَهُ

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الآية ٢٥].

ـ ما موقع كلمة ﴿عَنْ﴾ هنا؟

* كلمة ﴿عَنْ﴾ هنا بمعنى «من» أي من عباده، تقول أخذ فلان العلم عن فلان أي منه.

وقال: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [الآية ٢٩].

وقال جل وعلا: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾.

ـ ما وجه نصب ﴿وَيَعْلَمَ﴾ مع أنّ ما قبلها مجزوم؟

* إنّما كان النصب للعطف على تعليل محذوف، فكأنه سبحانه قال لينتقم منهم، وليعلمَ الذين يجادلون في آياتنا.

وقال سبحانه: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الآية ٤٠].

ـ لِمَ سُمّيَ الجزاء سيئة وهو ليس بسيّئة؟

ـ ذلك من باب الازدواج، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة/ ١٩٤]. وقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل/ ١٢٦].

وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ [الآية ٥١].

ـ ما المراد بالحجاب في هذه الآية الكريمة؟

* المراد بالحجاب البعد والخفاء وعدم الظهور، والعَرَبُ تستعمل لفظ الحجاب في ما ذكرناه، فيقول أحدهم لغيره اذا استبعد فهمه واستبطأ فطنته، بيني وبينك حجاب، وتقول للأمر الذي تستبعده وتستصعب طريقه، بيني وبينه حجاب وموانع وسواتر وما جرى مجرى ذلك؛ وعليه يكون معنى الآية: أنه تعالى لم يكلّم البشر إلاّ وحياً بأن

يخطر في قلوبهم، أو من وراء حجاب بأن ينصب لهم أدلّة تدلّهم على ما يريده أو يكرهه، فيكون من حيث نصبه للدلالة على ذلك، والإرشاد إليه مخاطباً ومكلّماً للعباد بما يدل عليه؛ وجَعَلَه تعالى من وراء حجاب من حيث لم يكن مسموعاً، كما يسمع الخاطر، فالحجاب كناية عن الخفاء.

وقال: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الآية ٥٢].

ـ ما المراد بالكتاب والإيمان في هذه الآية الكريمة؟

* المراد بالكتاب القرآن، وبالإيمان التصديق بالله سبحانه وبرسوله معاً، فالنبي (ص) مخاطَب بالإيمان أي بالتصديق بالله وبرسالة نفسه، كما أنّ أمّته مخاطبة بتصديقه، ولا شكّ في أنه، قَبْل البعث، لم يكن يعلم أنه رسول الله، وما علم ذلك إلا بالوحي، ويستقيم نفي الإيمان بالمعنى المركّب من التصديق بالله وبرسالة نفسه، وليس المراد بالإيمان التصديق بالله فقط.

ـ ولِمَ قال تعالى: ﴿مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ۝٥٢﴾ والوجه الظاهر أن يقال «وما الإيمان»؟

* تقدير الآية: ما كنت قبل البعث تدري ما الكتاب، ولا ما الإيمان.

المعاني المجازية في سورة «الشورى»(*)

في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا﴾ [الآية ١٣] استعارة. والمراد بإقامة الدين إعلان شعاره، وإعلاء مناره، والدّوام على اعتقاده، والثبات على العمل بواجباته.

وقد مضى الكلام على نظائر هذه الاستعارة في ما تقدم.

وفي قوله سبحانه: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الآية ١٦] استعارة. و«الدحض»: الزَّلَق. فكأنه تعالى قال: حجّتهم ضعيفة غير ثابتة، وزالّةٌ غير متماسكة، كالواطئ الذي تَضْعُفُ قدمُه، فيزلَقُ عن مستوى الأرض، ولا يستمر على الوطء. وداحضةٌ هٰهنا بمعنى مدحوضة. وإذا نسب الفعل إليها في الدُّحوضِ كان أبلغ في ضُعف سِنادِها، ووهاء عِمادِها، فكأنها هي المبطلة لنفسها، من غير مُبْطِلٍ أبْطلها، لظهور أعلام الكذِب فيها، وقيام شواهدِ التهافُت عليها. وأطلق تعالى اسم الحجّة عليها، وهي شُبْهة، لاعتقاد المُدْلي بها أنها حجّة، وتسميته لها بذلك في حال النزاع والمناقلة.

وأيضاً، فإنّ المتكلّم بها، لمّا أوردها موردَ الحجة، وأسلكها طريقها، وأقامها مقامها، جاز أن يطلق عليها اسمها.

وفي قوله سبحانه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠)﴾ استعارة. والمراد بحرث الآخرة والدنيا، كدْحُ

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

الـكـادح لـثـواب الآجـلـة، وحُـطـام العاجلة، فهذا من التشبيه العجيب، والتمثيل المصيب. لأنّ الحارث المزدَرِع، إنّما يتوقع عاقبة حَرْثِهِ، فيجني ثمرة غراسه، ويفوز بعوائد ازدراعه.

وقيل معنى: ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ أي نعطيه بالحسنة عشراً، إلى ما شئنا من الزيادة على ذلك. وَمَنْ عمل للدنيا دُون الآخرة، أعطيناه نصيباً من الدُّنيا دُونَ الآخرة.

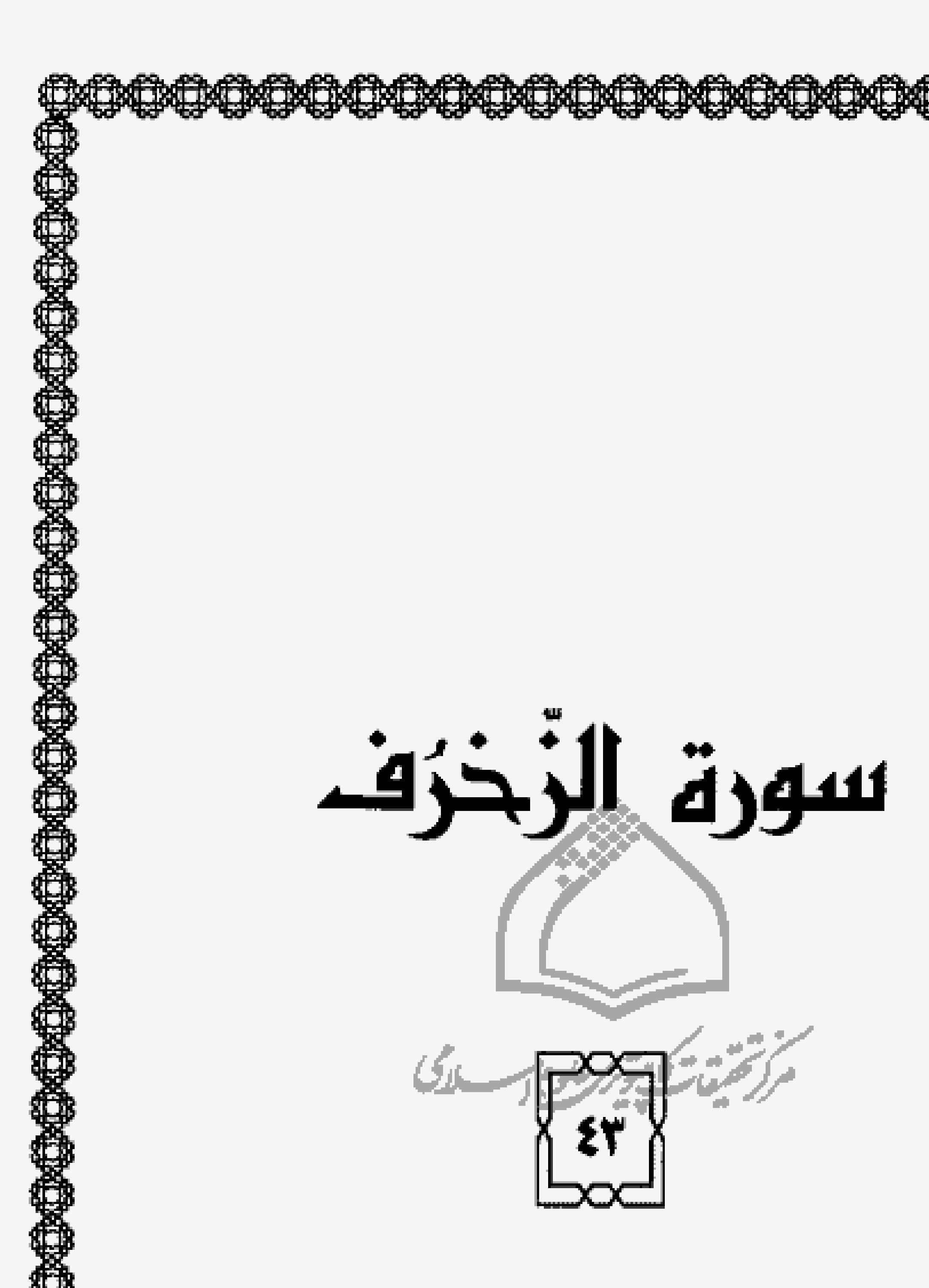
وفي قوله سبحانه: ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٢٨﴾ استعارة. وليس المراد أن هناك رحمة كانت مطويّةً فَنُشِرَتْ، وخَفِيَّةً فأظْهِرَتْ.

وإنما معنى الرحمة، هُهنا، الغيث المنـزّل لإحياء الأرض، وإخراج النَّبْت. ونَشْرُهُ عبارةٌ عن إظهار النفع به، وتعريفِ الخَلْق عواقبَ المصَالحِ بموقعه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَـٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾ [الآية ٤٥] استعارة. وقد أشرنا إليها فيما تقدّم، لمعنى جَرَّ إلى ذكرها. والمراد بذلك، أنّ نظرهم نظَرُ الخائف الذليل، والمرتاب الظَّنين. فهو لا يَنظُرُ إلا مُستَرِقاً، ولا يُغْضِي إلا مُشْفِقاً. وهذا معنى قولهم: فلانٌ لا يملأ عينيه من فلان. إذا وصفوه بِعِظَمِ الهيبة له، وشِدَّةِ المخافة منه. فكأنّهم لا ينظرون بمتّسعاتِ عيونهم، وإنّما ينظرون بِشُفافاتِها[1] مِنْ ذُلِّهم ومَخَافتهم.

وقد يجوز أن يكون الطَّرْف، هُهنا، بمعنى العَيْن نفسها. فكأنه تعالى وصفهم بالنظر من عين ضعيفة، على المعنى الذي أشرنا إليه، أو يكون الطرف مصدَر قولك: طَرَفْتُ، أطْرِفُ، طَرْفاً. إذا لَحَظْتُ. فيكون المعنى أنّ لَحْظَهُمْ خَفِيٌ، لأنَّ نَظَرَهُم اسْتراقٌ، كما قلنا أوّلاً، من عظيم الخِيفة وتوقُّع العقوبة.

(١) لعلها جمع شُفافة، وهي بقيّة الشيء.



سورة الزّخرف

٤٣

أهداف سورة «الزخرف»(*)

سورة الزخرف سورة مكيّة نزلت بعد سورة «الشورى». وقد نزلت في الفترة الأخيرة من حياة المسلمين في مكّة بعد الإسراء وقبيل الهجرة، وقد سُمّيت بسورة «الزخرف»، لقوله تعالى فيها:

﴿وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

أفكار السورة

تعرض هذه السورة جانباً ممّا كانت الدعوة الإسلامية تلاقيه من مصاعب وعقبات، ومن جدال واعتراضات، وتعرض معها كيف كان القرآن الكريم يعالجها في النفوس، وكيف يقرّر في ثنايا علاجها حقائقه وقيمه في مواجهة الخرافات والوثنيات والقيم الجاهلة الزائفة، التي كانت قائمة في النفوس إذ ذاك، ولا يزال جانب منها قائماً في النفوس في كلّ زمان ومكان.

وقال الفيروزآبادي: معظم مقصود سورة «الشورى» هو: «بيان إثبات القرآن في اللوح المحفوظ، وإثبات الحجّة والبرهان على وجود الصانع، والردّ على عُبّاد الأصنام الذين قالوا: الملائكة بنات الله سبحانه، والمنّة على الخليل إبراهيم (ع) بإبقاء كلمة التوحيد في عقبه، وبيان قسمة الأرزاق، والإخبار عن حسرة الكفار وندامتهم يوم القيامة، ومناظرة فرعون وموسى، ومجادلة عبدالله بن الزبعري للمؤمنين بحديث عيسى (ع)، وادعاؤه أن

(*) انتقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

الملائكة أحق بالعبادة من عيسى، ثم بيان شرف الموحّدين في القيامة، وعجز الكفار في جهنّم، وإثبات ألوهية الحق سبحانه في السماء والأرض، وأمر الرسول (ص) بالإعراض عن مكافأة الكفار»[1] في قوله تعالى:

﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٨٩﴾.

فصول السورة

إذا تأملنا سورة الزخرف، وجدنا أنه يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ شبهات الكافرين

يشمل الفصل الأول الآيات [١ ـ ٢٥]. ويبدأ بالتنويه بشأن القرآن والوحي، وبيان أنّ من سنّة الله، جلّ جلاله، إرسال الرسل لهداية الناس وإرشادهم، ولكنّ البشرية قابلت الرسل بالاستهزاء والسخرية، فأهلك الله المكذّبين.

والعجيب أن كفّار مكة كانوا يعترفون بوجود الله، ثم لا يرتّبون على هذا الاعتراف نتائجه الطبيعية، من توحيد الله وإخلاص التوجّه إليه، فكانوا يجعلون له شركاء يخصّونهم ببعض ما خلق من الأنعام.

وفي هذه السورة تصحيح لهذه الانحرافات الاعتقادية، وردّ النفوس الى الفطرة، وإلى الحقائق الأولى؛ فالأنعام من خلق الله، وهي طرف من آية الحياة، مرتبط بخلق السماوات والارض جميعاً، وقد خلقها الله وسخّرها للبشر ليذكروا نعمة ربهم عليهم ويشكروها، لا ليجعلوا له شركاء، ويشرعوا لأنفسهم في الأنعام ما لم يأمر به الله، بينما هم يعترفون بأن الله، جل جلاله، هو الخالق المبدع، ثم هم ينحرفون عن هذه الحقيقة، ويتّبعون الخرافات والأساطير:

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٩﴾.

وكانت الوثنية الجاهلية تقول: إنّ الملائكة بنات الله. ومع أنهم يكرهون مولد البنات لأنفسهم، فإنّهم كانوا يختارون لله البنات ويعبدونهنّ من

---

(١) بصائر ذوي التميز في لطائف الكتاب العزيز ١/ ٤٢١، مع تعديل يسير.

دونه، ويقولون إنّنا نعبدهنّ بمشيئة الله ولو شاء ما عبدناهنّ. وكانت مجرد أسطورة ناشئة عن انحراف في العقيدة.

وفي هذه السورة يناقشهم القرآن بمنطقهم هم، ويحاجّهم كذلك بمنطق الفطرة الواضح حول هذه الأسطورة التي لا تستند الى شيء على الإطلاق:

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

ثم يكشف القرآن الكريم عن سندهم الوحيد في اعتقاد هذه الأسطورة، وهو المحاكاة والتقليد، وهي صورة زريّة، تشبه صورة القطيع يمضي حيث هو، منساقاً بدون تفكير.

ثم يبيّن القرآن، أن طبيعة المُعرضين عن الهدى واحدة، وحجّتهم مكرورة بدون تدبّر لِمَا يُلقى إليهم، ولو كان أهدى وأجدى، ومن ثَمّ لا تكون عاقبتهم إلاّ التدمير والتنكيل، انتقاماً منهم وعقاباً لهم:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

٢ ـ مناقشة ومحاجة

تشتمل الآيات [٢٦ ـ ٥٦] على القسم الثاني من السورة، وهو استمرار لمناقشة قريش في دعاويها. فقد كانت قريش تقول: إنها من ذريّة إبراهيم (ع) ـ وهذا حق ـ وإنها على ملّة إبراهيم (ع) ـ وهذا ادّعاء باطل ـ فقد أعلن إبراهيم (ع) كلمة التوحيد قوية واضحة، لا لَبْس فيها ولا غموض، ومن أجلها هجر أباه وقومه، بعد أن تعرّض للقتل والتحريق، وعلى التوحيد قامت شريعة إبراهيم (ع)، ثم أوصى بها ذريّته وعَقِبَه، فلم يكن للشرك فيها أي خيط رفيع.

وفي هذا القسم من السورة يردّهم

الى هذه الحقيقة التاريخية، ليعرضوا عليها دعواهم التي يدّعون. ثم يحكي اعتراضهم على رسالة النبي (ص) وقولهم كما ورد في التنزيل ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾، ويناقش قولتهم هذه، وما تنطوي عليه من خطأ في تقدير القيم الأصلية التي أقام الله عليها الحياة، والقيم الزائفة التي تتراءى لهم، وتصدّهم عن الحقّ والهدى. وعقب تقرير الحقيقة في هذه القضية، يُطْلعهم على عاقبة المعرضين عن ذكر الله، بعد أن يطلعهم على علّة هذا العمى، وهو من وسوسة الشيطان.

ويلتفت السياق في نهاية هذا الدرس الى الرسول (ص) فيذكر تسلية الله تعالى له ومواساته إيّاه عن إعراضهم وعماهم، بأن الرسول (ص) ليس بهادي العُمْيِ أو مُسمِعِ الصّمّ، وسيلقون جزاءهم، سواء أشهد انتقام الله منهم، أم أخّره الله عنهم، ويوجّهُهُ تعالى الى الاستمساك بما أوحى إليه فإنّه الحق الذي جاء به الرسل أجمعون؛ فكلّهم جاءوا بكلمة التوحيد؛ ثم يعرض، من قصة موسى (ع)، حَلْقة تمثّل واقع العرب هذا مع رسولهم، وكأنّما هي نسخة مكررة تحوي الاعتراضات ذاتها التي يُبدونها، وتحكي اعتزاز فرعون وملته بالقيم ذاتها، التي يعتّز بها المشركون: المال، الملك، الجاه، السلطان، مظاهر البذخ. وقد بيّن القرآن الكريم، فيما سبق، أنّها لا تَزِن عند الله جناح بعوضة، ولو شاء الله لأعطى هذه الأموال للكافر في الدنيا لهوانها على الله من جهة، ولأنّ هذا الكافر لا حظّ له في نعيم الآخرة، من جهة اخرى؛ ولكنّ الله سبحانه لم يفعَل ذلك خشية أن يفتن الناس، وهو العليم بضعفهم، ولولا خوف الفتنة لجعل للكافر بيوتاً سُقُفُها من فضة، وسلالمها من ذهب، بيوتاً ذات أبواب كثيرة، وقصوراً فيها سُرُرٌ للاتكاء، وفيها زخرف للزينة... رمزاً لهوان هذه الفضة والذهب، والزخرف والمتاع، بحيث تبذل هكذا رخيصة لمن يكفر بالرحمن.

وهذا المتاع الزائل لا يتجاوز حدود الدنيا، ولكن الله يدّخِرُ نعيم الآخرة للمتقين.

٣ ـ من اساطير المشركين

تشتمل الآيات [٥٧ ـ ٨٩] على

الدرس الأخير من سورة الزخرف، وفيها يستطرد السياق الى حكاية أساطير المشركين حول عبادة الملائكة، ويحكي حادثاً من حوادث الجدل الذي كانوا يزاولونه، وهم يدافعون عن عقائدهم الواهية، لا بقصد الوصول الى الحق، ولكن مِراءً ومحالاً.

فلما قيل: إنكم وما تعبدون من دون الله حطب جهنم، وكان القصد هو أصنامهم التي جعلوها تماثيل للملائكة، ثم عبدوها بذاتها؛ وقيل لهم إنّ كل عابد وما يعبد من دون الله في النار... لما قيل لهم هذا، ضَرب بعضهم المثل بعيسى بن مريم (ع)، وقد عبده المنحرفون من قومه، أهو في النار؟ وكان هذا مجرد جدل، ومجرد مِراء.

ثم قالوا: إذا كان أهل الكتاب يعبدون عيسى (ع)، وهو بشر، فنحن أهدى منهم إذ نعبد الملائكة وهم بنات الله، وكان هذا باطلاً يقوم على باطل.

وبهذه المناسبة، يذكر السياق طرفاً من قصة عيسى بن مريم (ع)، يكشف حقيقته وحقيقة دعوته، واختلاف قومه من قبله ومن بعده.

ثم يهدّد المنحرفين عن سواء العقيدة جميعاً بمجيء الساعة بغتة. وهنا يعرض مشهداً مطوّلاً من مشاهد القيامة، يتضمّن صفحة من النعيم للمتّقين، وصفحة من العذاب الأليم للمجرمين، ثم يبيّن إحاطة الله سبحانه بجميع ما يصدر عنهم، وتسجيل ذلك عليهم.

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

ثم تلطّف القرآن الكريم في تنزيه الله تعالى عمّا يصفون، فأمر النبي (ص) أن يذكر لهم أنه لو كان للرحمن ولد، لكان النبي (ص) أوّل العابدين له، ولكن الله جلّ جلالُه منزّه عن اتّخاذ الولد، فهو سبحانه له الملكية المطلقة، للسماء والأرض، والدنيا والآخرة.

ثم يواجههم القرآن الكريم بمنطق فطرتهم، فهم يؤمنون بالله، فكيف يصرفون عن الحق الذي تشهد به فطرتهم، ويحيدون عن مقتضاه:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

وفي ختام السورة يتبدّى اتجاه الرسول (ص) لربّه، يشكو إليه كفرهم، وعدم إيمانهم:

﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ٨٨﴾ .

ويجيب عليه سبحانه في رعاية، فيدعوه الى الصفح والإعراض، فسيلقون جزاءهم المحتوم:

﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٨٩﴾ .



ترابط الآيات في سورة «الزخرف»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة «الزخرف» بعد سورة «الشورى»، ونزلت سورة «الشورى» بعد الإسراء وقُبيل الهجرة، فيكون نزول سورة «الزخرف»، في ذلك التاريخ أيضا.

وقد سُميت هذه السورة بهذا الاسم، لقوله تعالى منها: ﴿وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ وتبلغ آياتها تسعاً وثمانين آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السورة تنزيه الله تعالى عن الأولاد، وقد ذكر في السورة السابقة اتفاق الرسل على شريعة التوحيد، ولكنّ بعض أتباعهم أدخل عقيدة الولد في شرائعهم، فذُكِرت هذه السورة بعدها لتنزيه الله سبحانه عنها، وتبرئة هذه الشرائع منها؛ هذا إلى ما فيها من أخذهم بالترهيب والترغيب وغيرهما مما تُشبِه به السورةَ السابقة أيضا.

التمهيد لتنزيه الله سبحانه عن الأولاد
الآيات [١ ـ ١٤]

قال الله تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾ فمهد لذلك بالتنويه بشأن ما يتلى عليهم فيه، وذكر سبحانه

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجمايز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

أنّه لا يصح أن يعرض عن إنذارهم لإسرافهم في شركهم، وأنه كم أرسل من نبي في الأولين، وأنهم كانوا أشدّ منهم بطشاً، فلمّا استهزأوا بالرسل أهلكهم وجعلهم مثلاً لمن بعدهم؛ ثم انتقل السياق من ذلك الى إثبات ما ذكره من إسرافهم وعنادهم، فذكر سبحانه أنهم لو سئلوا: مَن خلق السماوات والأرض لقالوا: خلقهنّ العزيز العليم؛ وذكر بعد هذا بعض ما أنعم به عليهم، ليعرفوا فضله، وينزّهوه عمّا لا يليق به، ويعتقدوا أنهم لا بد من رجوعهم إليه ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

إبطال بنوة الملائكة
الآيات [١٥ ـ ٥٦]

ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ فذكر، جلّ وعلا، أنهم، بدل شكره سبحانه، وتنزيهه عمّا لا يليق به، قالوا عن الملائكة إنهم بناته، مع أنهم لا يَرضَوْنَ البنات لأنفسهم، وإذا بُشّر أحدهم بما يضربه لله مثلاً من البنات ظلّ وجهه مسوداً من الحزن والغم؛ ثم ذكر أنهم لا دليل لهم على عبادتها إلاّ قولهم: لو شاء الرحمن ما عبدناهم، وقولهم: إنّا وجدنا آباءنا يعبدونهم ونحن مقتدون بهم؛ وردّ عليهم بأنّ مَن قبلهم مِن المشركين ذَكَر مثل هذا لرسلهم، فلم يفدهم شيئاً وانتقم الله منهم فأهلكهم؛ ثم أمر النبي (ص) أن يذكر لهم براءة إبراهيم (ع) ممّا يشركون، وهو الأب الأعلى لهم، والإمام الذي يجب أن يكون قدوتهم، وكان قومه يعبدون الكواكب وسكّانها من الملائكة، فتبرأ من عبادتهم، وشرع دين التوحيد لذريّته، ليرجعوا إليه جيلاً بعد جيل؛ ثم ذكر تعالى أنه متّع العرب من ذريته حين انصرفوا عن شرعه، الى تلك العبادة الباطلةِ، فأمهلهم وأمدّ لهم، الى أن أرسل إليهم رسولاً منهم، وأنزل عليه القرآن ليدعوهم الى عبادته، فاستخفُّوا به لأنه لم يكن من ذوي الرياسة فيهم، وقالوا لولا نُزّل هذا القرآن على رجل عظيم من مكة أو الطائف؛ وردّ عليهم سبحانه بأن ذلك فضله ورحمته يقسمهما كما يريد، وهو الذي قسم بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا، واقتضت حكمته أن يكون فيهم الأغنياء والفقراء لتنتظم بهذا أمور

حياتهم، ورحمته خير من تلك الأموال التي يجعلونها مقياس الفضل بينهم. ولولا أن يكون الناس أمة واحدة على الكفر، لجعل لمن يكفر به بيوتاً سُقُفها من فضة، إلى غير هذا من زخرف الدنيا وزينتها: ﴿وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴿٣٥﴾﴾ ثم ذكر تعالى أنّ ذلك من إغواء الشيطان الذي اتخذوه قريناً لهم، وأنهم سيندمون على استماعهم له، حين يرجعون الى ربّهم، ويتمنّون أن لو كان بينهم وبينه بُعد المشرقين؛ ثم ذكر سبحانه للنبي (ص) استحكام الجهل فيهم، وأنهم لا ترجى هدايتهم، وأنه إن ذهب به قبلهم فإنه سينتقم منهم في آخرتهم، وإن أراه ما يوعدون من العذاب في دنياهم فهو مقتدر عليهم. ثم أمره أن يستمسك بما أُوحي إليه من الإسلام والتوحيد؛ وذكر أنه هو الدين الذي أرسل به الرسل قبله؛ ثم خصّ موسى (ع) بالذكر من بينهم، لبقاء ظهور التوحيد في شريعته، أعظم من ظهوره في سواها؛ فذكر ما كان من إرساله الى فرعون وقومه، وذكر ما كان من اغترار فرعون بملكه، واستهزائه بموسى (ع) لأنه لا يبلغ ما بلغه من المجد والسلطان في الحياة الدنيا، وأنه استخفَّ قومه فأطاعوه فأغرقهم أجمعين: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴿٥٦﴾﴾.

إبطال بنوة عيسى
الآيات [٥٧ ـ ٨٩]

ثم قال تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴿٥٧﴾﴾ فذكر أنهم اعتمدوا على النصرانية في عبادتهم الملائكة، فقالوا إن النصارى عبدوا عيسى (ع) واتخذوه ولداً لله، والملائكة خير منه بزعمهم الباطل؛ وردّ عليهم سبحانه بأن عيسى ما هو إلا عبدٌ مثلهم، وأنه لو يشاء سبحانه لجعلهم خلفاً في الأرض منهم، ولم يُسْكنهم السماوات التي جعلتهم يبالغون في أمرهم؛ ثم ذكر أن عيسى (ع) إنما وُلد من غير أب، ليكون علامة على الساعة، ونهاهم عن الشكّ فيها، وأمرهم أن يتبّعوه ولا يسمعوا للشيطان فيما يزيّن لهم من عبادة غيره؛ ثم ذكر أن عيسى (ع) جاء بما جاء به غيره من الرسل، فأمرَ بتقوى الله وعبادته، ولكنّ أتباعه

اختلفوا بعده الى أحزاب في شريعته، وزعموا أنه ابن له، ثم هددهم على هذا بعذاب يوم القيامة، وبيّن أنها توشك أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون، ويومئذ يعادي الأخلاء بعضهم بعضاً إلا المتّقين؛ ثم ذكر ما يحصل للمتّقين في ذلك اليوم، وذكر بعده ما يحصل للمجرمين فيه، الى أن ذكر في بيان استحقاقهم لما يحصل لهم: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

ثم ختمت السورة بالتلطّف في إبطال اتّخاذ الأولاد له تعالى، فأمر الله نبيّه أن يذكر أنه لو كان لله سبحانه ولد، كما يزعمون باطلاً، لكان أوّل العابدين ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾. وأمره أن يتركهم في لهوهم ولعبهم حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون؛ ثم ذكر سبحانه أنه هو الذي ثبتت ألوهيته في السماء والأرض، وله ملك السماوات والأرض وما بينهما، ولا يملك الذين يَدْعُون، من الملائكة ونحوهم، الشفاعةَ لأحد، إلاّ من شهد بالحق، فلا يصحّ أن يكونوا مع هذا العجز أولاداً له؛ ثم استبعد منهم أن يذهبوا إلى عبادتهم، مع علمهم بأنه جل جلاله، هو الذي خلقهم؛ ثم ذكر أن مثل هؤلاء قوم لا يؤمنون: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

مكنونات سورة «الزخرف»(*)

١ ـ ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾.

قال الضَّحَّاك، عن ابن عباس: يعنون الوليد بنَ المغيرة المخزومي من مكة، ومسعود بنَ عمرو بنِ عبيد الله الثقفي من الطائف، أخرجه ابنُ أبي حاتم.

وأخرج عن قتادة: وعروة بن مسعود[1].

ومن طريق العَوْفي، عن ابن عباس: حبيب بن عمر بن عثمان[2] الثقفي.

وأخرج عن مُجاهِد: عُتْبة بن ربيعة من مكة، وابن عبد ياليل الثَّقَفي من الطائف[3].

٢ ـ ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ [الآية ٥١].

قال مجاهد: الإسكندرية. أخرجه ابنُ أبي حاتم.

٣ ـ ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ [الآية ٥٧].

الضارب له عبدالله بن الزِّبَعْرَى[3].

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِماتِ الأقران في مُبْهمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) انظر «تفسير الطبري» ٢٥/ ٤٠.

(٢) «تفسير الطبري»: «عمير»، وكذا في «سيرة ابن هشام» ١/ ٤١٩.

(٣) رواه ابن إسحاق في «السيرة» ٣٥٩ ـ ٣٦٠.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

لغة التنزيل في سورة «الزخرف»(*)

١ ـ قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

وقوله تعالى: مقرنين، أي: مطيقين، يقال: أقرن الشيء إذا أطاقه، قال ابن هرمة:

وأقرنتُ ما حمّلتِني ولقلّما
يطاق احتمالُ الصدِّ يا دعدُ والهجرُ

أقول: ومع استعمالنا للفعل «قَرَن» و«قارنَ» فإننا لا نعرف «أقرَن» ولا نعرف هذا الاستعمال في العربية المعاصرة.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

والزخرف: زينة من كل شيء، والزخرف: الزينة والذهب.

أقول: وقد خُصّص الزخرف في لغتنا، فصارت دلالته على الأشكال المنسّقة، المتقابلة، والمتقاطعة، في حَفْر الخشب وقطعه، وكذلك في المعادن.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ [الآية ٣٦].

وقُرئ: ومن يعشُ بضم الشين وفتحها، والفرق بينهما أنه إذا حصلت الآفة في بصره قيل: عَشِيَ. وإذا نَظَرَ نَظَرَ العَشِيّ ولا آفة به قيل: عَشَا، ونظيره: عَرِج، لِمَن به الآفة، وعَرَج لمن مَشَى مشية العُرجان من غير عَرَج.

٤ ـ وقال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

وقُرئ ﴿سَلَفًا﴾: جمع سالف كخدم جمع خادم، و(سُلُفاً)، بضمتين، جمع سليف، أي: فريق قد سلف، و(سِلَفاً) جمع سِلفة أي ثُلّة قد سلفت.

والمعنى: فجعلناهم قُدْوَةً للآخرين من الكفّار، يقتدون بهم في استحقاق مثل عقابهم، ونزولهم به لإتيانهم بمثل أفعالهم.

٥ ـ وقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَصِدُّونَ﴾، أي ترتفع لهم جلبة وضجيج، أي من الصديد وهو الجلبة، وقرئ: يصُدُّون من الصدود والتفسير واضح.

٦ ـ وقال تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿تُحْبَرُونَ﴾، أي: تكرمون وتُسرّون.



المعاني اللغوية في سورة «الزخرف»(*)

قال تعالى: ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾﴾ أي: «لِأَنْ كُنْتُمْ».

وقال تعالى: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ [الآية ١٣] فتذكيره متعلق بـ ﴿مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾﴾ و(ما) هو مذكر، كما تقول: «عندي من النساء ما يوافقك ويسرك» وقد تذكَّرُ «الأنعام» وتؤنث. وقد قال تعالى في موضع: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ [النحل/٦٦]، وقال جلّ شأنه في موضع آخر ﴿بُطُونِهَا﴾ [المؤمنون/٢١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾؛ تقول العرب «أنا بَراءٌ منك»[1].

وقال تعالى: ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ تقول العرب «مَفاتِح» و«مَفاتِيح» و«مَعاطِ» في «المِعطاءِ» و«أثافِ» من «الأُثْفِيَّةِ». وواحد «المَعارِج» «المِعْراج» ولو شئت قلت في جمعه «المعاريج».

وقرأ بعضهم قوله تعالى: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الآية ٣٥] خفيفة منصوبة اللام[2] وقرأ آخرون

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.

(1) في مجاز القرآن ٢/ ٢٣، أنها لغة أهل العالية؛ وفي اللّهجات ٤٧٥ أنها لغة حجازيّة.

(2) هي في السبعة ٥٨٦، الى القراء، عدا عاصماً، وحمزة، وابن عامر، في رواية؛ وفي التيسير ١٩٦ أبدل هشاماً، بابن عامر؛ وفي البحر ٨/ ١٥ الى الجمهور.

﴿لَمَّا﴾ بتثقيل اللام ونصبها، وتضعيف الميم[1] وزعم أنها في التفسير الأول «إلاّ» وأنّها من كلام العرب.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الآية ٣٦] وهو ليس من «أعشىٰ» و«عَشو»، إنّما هو في معنى قول الشاعر [من الطويل وهو الشاهد السابع والستون بعد المثتين]:

إلَى مالِكٍ أعشو الىٰ مِثْلِ مالِكِ

كأنَّ «أعْشُو»: أضْعُفُ، لأنه حين قال «أعشو الى مثل مالك» كان «العَشْوُ»: الضعف وحين قال: «أعشو إلى مثل مالك» أخبر أنه يأتيه غير بصير، ولا قوي. كما قال [من الطويل وهو الشاهد الثامن والستون بعد المثتين]:

مَتَى تَأْتِهِ تَعْشُو إلَى ضَوْءِ نارِهِ
تَجِدْ حَطَباً جَزْلاً وَنَاراً تَأَجَّجا[2].

أي: متى ما تفتقر، فتقصد الى ضوء ناره، يُغْنِكَ.

وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ [الآية ٥٣] بجمع «أساور» و«أسْوِرَة» وقرأ بعضهم (أساورة)[3]

---

(١) هي في السبعة ٥٨٦ الى عاصم، وحمزة وابن عامر في رواية، وأبدل في التيسير ١٩٦ هشاماً بابن عامر؛ وأهمل في البحر ٨/ ١٥ هشاماً وابن عامر، وذكر زيادة الحسن وطلحة والأعمش وعيسى، وعلى هذه القراءة، رسْمُ المصحف الشريف.

(٢) البيت ملفق من صدر للحطيئة عجزه هو:

تَجِدْ خَيْرَ نارٍ عندها خَيْرُ موقِدِ

وعجز بيت لعبد الله بن الحر صدره هو:

متى تأتنا تُلْمِمْ بنا في ديارنا

الكتاب وتحصيل عين الذهب ١/ ٤٤٥ و٤٤٦؛ ومجالس ثعلب ٤٦٧، والإنصاف ٢/ ٣٠٩؛ وشرح المفصل ٧/ ٥٣، و١٠/ ٢٠، و٢/ ٦٦، و٤/ ٤٧٨، و٧/ ٤٥، و٥٣؛ والخزانة ٣/ ٦٦٠؛ والدرر ٢/ ١٦٦؛ والمقاصد النحوية ٤/ ٤٣٩؛ ومجالس العلماء ٢٢٠؛ وأمالي ابن الشجري ٢/ ٢٧٨؛ وديوان الحطيئة ١٦١.

(٣) هي قراءة نسبت في معاني القرآن ٣/ ٣٥ الى يحيى بن وثاب، وفي الطبري ٢٥/ ٨٢، الى عامة قراء المدينة، والبصرة، والكوفة؛ وفي حجّة ابن خالويه ٢٩٥ الى القرّاء، إلاّ عاصماً، في رواية حفص، وفي الكشف ٢/ ٢٥٩، والتيسير ١٩٧، الى غير حفص؛ وزاد عليه في الجامع ١٦/ ١٠٠ ابن مسعود، وأبيّاً؛ وفي البحر ٨/ ٢٣ الى الجمهور.

أمّا قراء أسْورة، ففي معاني القرآن ٣/ ٣٥ الى أهل المدينة، والحسن؛ واقتصر في الطبري ٢٥/ ٨٢ على الحسن؛ وفي السبعة ٥٨٧ الى عاصم، وفي حجّة ابن خالويه ٢٩٥ الى عاصم، في رواية حفص؛ وفي الكشف

بجعله جمعاً للأسورة فكأنه أراد: «أسَاوِير»، والله أعلم، بِجَعْل الهاء عوضاً من الياء؛ كما في «زَنَادِقَة»[1]، بِجَعْل الهاء عوضاً من الياء التي في «زَنَادِيق».



۲/۲۵۹، والتيسير ۱۹۷، والجامع ١٦/ ١٠٠، الى حفص؛ وفي البحر ٨/ ٢٣، الى الحسن، وقتادة، وأبي رجاء، والأعرج، ومجاهد، وابن حيوة، وحفص.

(١) نقله في الصحاح ٢/ ٦٩٠.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

لكل سؤال جواب في سورة «الزخرف»(*)

إن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الآية ٣] ولم يقل قلناه أو أنزلناه، والقرآن ليس بمجعول، لأنّ الجَعْل هو الخلق، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام/١] وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾ [القيامة].

قلنا: الجَعْل أيضاً يأتي بمعنى القول، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾ [النحل/٥٧] وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [إبراهيم/٣٠] أي قالوا ووصفوا، لا أنهم خلقوا كذلك هنا.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ [الآية ٤٥] والنبي (ص) ما لقيهم حتّى يسألهم؟

قلنا: فيه إضمار تقديره: واسأل أتباع من، أو أمّة من أرسلنا من قبلك. الثاني: أنه مجاز عن النظر في أديانهم، والبحث عن مِلَلِهم، هل فيها ذلك. الثالث: أن النبي (ص) حشر له الأنبياء عليهم السلام ليلة المعراج، فلقيهم، وأمّهم في مسجد بيت المقدس، فلمّا فرغ من الصلاة نزلت عليه هذه الآية، والأنبياء حاضرون، فقال لا أسأل قد كفيت، وقيل إنه خطاب له، والمراد به أمّته.

فإن قيل: لِمَ قال الله تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ [الآية ٤٨] يعني الآيات التسع

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

التي جاء بها موسى (ع). فإن كان المراد به أن كلّ واحدة منهن أكبر من سواها، لزم أن يكون كل واحدة فاضلة ومفضولة؛ وإن كان المراد به أنّ كلّ واحدة منهن أكبر من أخت معنية لها، فأيّتها هي الكبرى، وأيتها هي الصغرى؟

قلنا: المراد بذلك ـ والله أعلم ـ أنهن موصوفات بالكِبَر، لا يَكَدْن يتفاوتن فيه، ونظيره بيت الحماسة:

مَنْ تَلْقَ مِنهُمْ تَقُلْ لاقَيْتُ سَيِّدَهُمْ

مِثْلَ النُّجُومِ التي يَسْرِي بِها السَّارِي

فإن قيل: لِمَ قال عيسى (ع) لأمّته كما ورد في التنزيل: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [الآية ٦٣].

قلنا: كانوا يختلفون في ما يعنيهم من أمر الديانات، وفي ما لا يعنيهم من أمور أخرى، فكان يبيّن لهم الشرائع والأحكام خاصة. وقيل إن البعض هنا بمعنى الكل، كما سبق في سورة غافر في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ [غافر/ ٢٨].

فإن قيل: ما الحكمة في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ بعد قوله تعالى ﴿بَغْتَةً﴾ أي فجأة.

قلنا: الحكمة أنّ الساعة تأتيهم، وهم غافلون، مشغولون بأمور دنياهم، كما قال تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يس] فلولا قوله تعالى ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾، لجاز أن تأتيهم بغتة، وهم فطنون، حذرون، مستعدّون لها.

فإن قيل: لِمَ وصف تعالى أهل النار فيها بكونهم مبلسين، والمبلس هو الآيس من الرحمة والفرج، ثم قال تعالى ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الآية ٧٧] فطلبوا الفرج بالموت.

قلنا: تلك أزمنة متطاولة، وأحقاب ممتدة، فتختلف فيها أحوالهم، فيغلب عليهم اليأس تارة فيسكنون، ويشتدُّ ما بهم من ألم العذاب تارة فيستغيثون.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الآية ٨٤] ظاهره يقتضي تعدّد الآلهة، لأنّ النكرة إذا أعيدت تعدّدت كقول القائل: له عليّ درهم ودرهم، وأنتِ طالق وطالق، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما لن يغلب عُسْرٌ يسرين؟

قلنا: الإله هنا بمعنى المعبود

بالنقل، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام/ ٣] فصار المعنى: وهو الذي في السماء معبود وفي الأرض معبود. والمغايرة ثابتة بين معبوديّته في السّماء، ومعبوديّته في الأرض، لأن العبوديّة من الأمور الإضافية، فيكفي في تغايرهما التغاير من أحد الطرفين، فإذا كان العابد في السماء غير العابد في الأرض، صدق أن معبوديته في السماء غير معبوديته في الأرض، مع أن المعبود واحد.




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المعاني المجازية في سورة «الزخرف»(*)

في قوله سبحانه: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾﴾ استعارة. ويقال: ضربتُ عنه وأضربت عنه بمعنى واحد.

وسواءٌ قولك ذهبْتُ عنه صفْحاً، وأعْرَضْتُ عنه صفْحاً، وضَرَبْتُ وأضْرَبْتُ عنه صَفْحاً، ومعنى صفْحاً هُهنا أي أعرضتُ عنه بصفحة وجهي.

والمراد، والله اعلم، أفَنُعرِضُ عنكم بالذِّكر، فيكون الذِّكْرُ مروراً بصَفْحهِ عنكم، من أجْلِ إسرافكم وبَغْيِكُمْ؟ أي لسنا نفعل ذلك، بل نوالي تذكيركم لتتذكّروا، ونتابع زجركم لتنزجروا. ولمّا كان سبحانه يستحيل أن يصف نفسه بإعراض الصفحة، كان الكلام محمولاً على وَصْف الذِّكْر بذلك، على طريق الاستعارة.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾﴾ استعارة. وقد مضى مثلها في ما تقدم، إلا أن هُهنا إبدال لفظة مكان لفظة. لأن ما مضى من نظائر هذه الاستعارة، إنما يَردُ بلفظ إحياء الأرض بعد موتها. وورد ذلك ههنا، بلفظ الإنشار بعد الموت وهو أبلغ. لأن الإنشار صفة تختصّ بها الإعادة بعد الموت، والإحياء قد يشترك فيه ما يُعاد من الحيوان بعد موته، وما يُعاد من النبات والأشجار بعد تلبُّدِهِ وجفوفه. يقال: قد أحيا الله الشجر.

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

كما يقال: قد أحيا البشرَ. ولا يقال: أنشرَ الله النبات، كما يقال: أنشرَ الأموات.

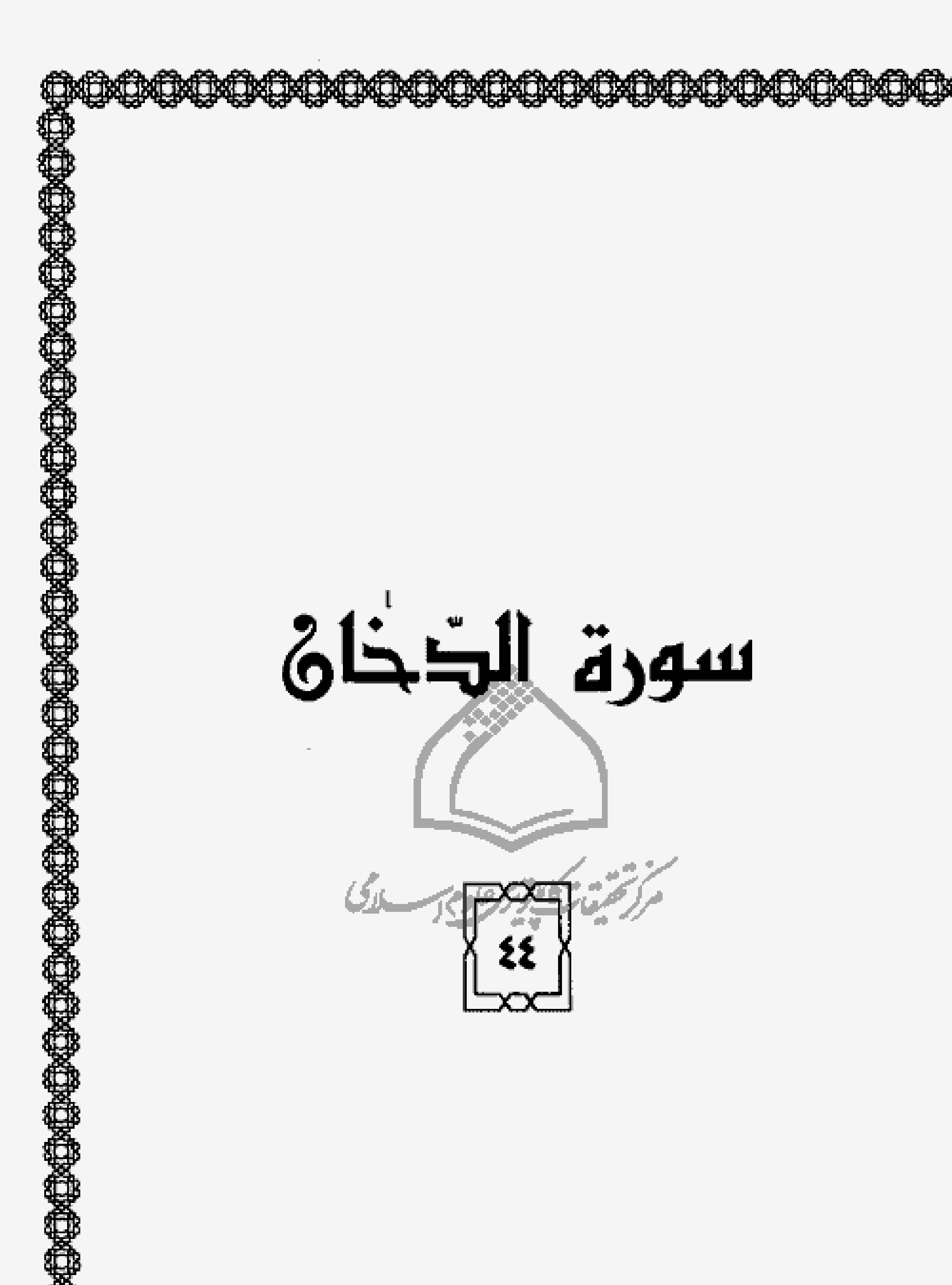
وفي قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴿٢٨﴾﴾ استعارة: لأنّ الكلام الذي هو الأصوات المقطّعة، والحروف المنظومة، لا يجوز عليه البقاء. إنما المراد، والله اعلم، أن ابراهيم (ع) جعل الكلمةَ التي قالها لأبيه وقومه وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴿٢٧﴾﴾ باقيةً في عقبه، بأن وَصّى بها وَلَدَهَ، وأمرَهم أن يتواصَوْا بها ما تناقَلَتهم الأصلابُ، وتناسَخَتهم الأدوار. وهذه الكلمة هي كلمة الإخلاص والتوحيد. والله اعلم.

وقوله سبحان: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴿٤٥﴾﴾ وهذا الكلام أيضاً داخل في قبيل الاستعارة. لأن مسألة الرسل الذين دَرَجت قرونُهم، وَخَلَتْ أزمانُهم غير مُمكنة. إنّما المراد، والله اعلم، واسأل أصحاب مَنْ أرسلنا من قبلك من رسلنا، أو استَعِلمْ ما في كتبهم، وتعَرفْ حقائق سنَنهم. وذلك على مثال: ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴿٨٢﴾﴾ [يوسف/ ٨٢].

وقال بعضهم: مسألة الرسل هٰهنا بمعنى المسألة عنهم، عليهم السلام، وعمّا أتَوْا به من شريعة، وأقاموه من عماد سنّة. وقد يأتي في كلامهم: اسأل كذا، أي اطلبه، واسأل عنه.

قال سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴿٣٤﴾﴾ [الاسراء/ ٣٤] أي مسؤولاً عنه.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴿٩﴾﴾ أي سُئِل عن قتلها، وطُلب بدمها. فكأنه تعالى قال لنبيه (ع): واسأل عن سنن الأنبياء قبلك، وشرائع الرسل الماضين أمامك، فإنك لا تجد فيها إطلاقاً عبادةً لمعبود إلا الله سبحانه. وقد استقصينا الكلام على ذلك في كتابنا الكبير.



سورة الدّخان

٤٤


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

أهداف سورة «الدخان»(*)

سورة «الدخان» سورة مكية نزلت في الفترة الأخيرة من حياة المسلمين في مكة، بعد الإسراء، وقبيل الهجرة، وآياتها ٥٩ آية، نزلت بعد سورة «الزخرف». وقد سميت سورة «الدخان» لقوله تعالى فيها:

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾﴾.

أفكار السورة

قال الفيروزآبادي: معظم ما ترمي إليه سورة الدخان هو:

نزول القرآن في ليلة القدر، وآيات التوحيد، والشكاية من الكفار، وحديث موسى (ع) وبني إسرائيل وفرعون، والرد على منكري البعث، وذلّ الكفار في العقوبة، وعز المؤمنين في الجنة، والمِنّة على الرسول (ص) بتيسير القرآن على لسانه، في قوله تعالى:

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

فضل السورة

سورة الدخان سورة يُكثر المسلمون قراءتها، خصوصاً ليلة النصف من شعبان، وليلة القدر في رمضان، وليلة الجمعة. وهي تبدأ ببيان أن القرآن أُنزل من السماء في ليلة مباركة، يحمل الرحمة والهدى من رب العالمين؛ ثم تنذر المشركين بالعذاب، وتذكر طرفاً من قصة موسى (ع) مع فرعون، يَعْقُبُه

(*) انتقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

مشاهد القيامة، وفيها نعيم المتقين، وعقاب المشركين.

ومن السُنَّة قراءة سورة الدخان لليلة الجمعة لتثبيت الإيمان وتقوية اليقين بقدرة الله رب العالمين. قال رسول الله (ص): «من قرأ حم التي يُذكر فيها الدخان في ليلة الجمعة أصبح مغفوراً له»[1].

سياق السورة

سورة الدخان سريعة الإيقاع، قصيرة الفواصل، لها سِمات السور المكية، إذ تشتمل على صور عنيفة متقاربة، ونُذُر متكررة، تشبه المطارق التي تقع على أوتار القلب البشري. «ويكاد سياق السورة أن يكون كله وحدة متماسكة، ذات محور واحد، تشد إليه خيوطها جميعاً، سواء في ذلك القصة، ومشهد القيامة، ومصارع الغابرين، والمشهد الكوني، والحديث المباشر عن قضية التوحيد والبعث والرسالة، فكلها وسائل ومؤثرات لإيقاظ القلب البشري، واستجاشته لاستقبال حقيقة الإيمان حية نابضة، كما يبثها هذا القرآن في القلوب»[2].

تبدأ السورة بهذه الآيات القصيرة المتلاحقة، المتعلقة بالكتاب والإنذار والرسالة والهداية:

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٥﴾﴾.

ثم تعريف للناس بربهم: رب السماوات والأرض وما بينهما، وإثبات الوحدانية لله المُحيي المميت، ربّ الأولين والآخِرين.

ثم أعرَض السياق عن هذا الحديث ليتناول شأن القوم:

﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ﴿٩﴾﴾.

ويعاجلهم بالتهديد المرعب جزاء الشك واللعب:

﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١١﴾﴾.

ثم ذكر ما يكون من دعائهم لله أن يكشف عنهم العذاب، وإعلانهم

---

(1) في حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ١٤٨ «هذا الحديث أخرجه الترمذي، وليس موضوعاً».

(2) في ظلال القرآن، بقلم سيد قطب ٢٤/١٠٥.

الاستعداد للإيمان في وقت لا يُقبل منهم فيه إيمان.

وتذكيرهم بأن هذا العذاب لم يأتِ بعد، وهو الآن عنهم مكشوف فلينتهزوا الفرصة، قبل أن يعودوا الى ربهم، فيكون ذلك العذاب المخيف.

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ (١٦)﴾.

ومن هذا الإيقاع العنيف بمشهد العذاب، ومشهد البطشة الكبرى والانتقام، ينتقل بهم السياق الى مصرع فرعون وملئه، يوم جاءهم رسول كريم، يدعوهم الى الإيمان بالله تعالى، فأبوا أن يستجيبوا لدعوته، وهمّوا بالانتقام من موسى (ع) فأغرقهم سبحانه، وتركوا وراءهم الجنات والزروع، والفاكهة والمقام الكريم، يستمتع بها سواهم، ويذوقون هم عذاب السعير.

وفي غمرة هذا المشهد الموحي يعود السياق الى الحديث عن تكذيبهم بالآخرة، وإنكارهم للبعث وقولهم، كما ورد في التنزيل:

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ (٣٥) فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٣٦)﴾.

ليذكّرهم، بأنهم ليسُوا أقوى من قوم تُبّعٍ الذين هلكوا لإجرامهم. ويربط السياق بين البعث، وحكمة الله، جلّ وعلا، في خلق السماوات والأرض، فلم يخلقهما عبثاً، وإنما لحكمة سامية، هي أن تكون الدنيا للعمل والابتلاء، والآخرة للبعث والجزاء.

ثم يحدثهم عن يوم الفصل الذي هو ﴿مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾. وهنا يعرض السياق مشهداً عنيفاً لعذاب المكذِّبين: إنهم يأكلون من شجرة مؤلمة طعامها مثل دُرْدِيّ[3] الزيت المغلي ـ وهو المُهْل ـ يَغْلي في البطون كغلي الجحيم، ويُشدُّ المجرمَ شدّاً في جفوة وإهانة، ويُصبُّ فوق رأسه من الحميم الذي يَكوي ويشوي.

ومع الشدِّ والجذبِ، والدفعِ والعَتْلِ والكَيِّ، التأنيبُ والإهانةُ، جزاءَ الشكِّ والتكذيبِ بالبعثِ والجَزاءِ:

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ (٤٩)﴾.

وفي الجانب الآخر من ساحة

(٣) دُرْدِيّ الزيت: ما رسَبَ أسفلَ الزيت.

القيامة، نجد المتّقين في مقام أمين، يلبَسون الحرير الرقيق وهو السندس، والحرير السميك وهو الإستبرق، ويجلسون متقابلين يسمُرون ويتمتعون بالحُور العين، وبالخلود في دار النعيم.

﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾.

ثم يأتي الختام يذكّرهم بنعمة الله سبحانه في تيسير هذا القرآن على لسان الرسول العربي، الذي يفهمون كلامه ويدركون معانيه، ويُخَوِّفهم العاقبة والمصير، في تعبير ملفوف، ولكنه مخيف.

﴿فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.



ترابط الآيات في سورة «الدخان»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة «الدخان» بعد سورة «الزخرف»، ونزلت سورة «الزخرف» بعد الإسراء وقبيل الهجرة، فيكون نزول سورة «الدخان» في ذلك التاريخ أيضا.

وقد سمّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (١٠)﴾ وتبلغ آياتها تسعاً وخمسين آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السورة، بيان أن ما أُنذر به المشركون، في آخر السورة السابقة، قد صار قريباً، وأصبح وقوعه مرتقباً، وأوشك دخانه أن يملأ آفاق السماء؛ ولهذا جاءت هذه السورة بعد سورة الزخرف، لِمَا بينهما من هذه المناسبة الظاهرة.

إنزال يوم العذاب
الآيات [١ ـ ٥٩]

قال الله تعالى: ﴿حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (٣)﴾ فذكر سبحانه أنه أنزل يومَ عذابهم الى سماء الدنيا، في الليلة التي اختارها من السنة لتقدير الحوادث فيها، وإعلان ملائكته بها لتنفيذها. ثم انتقل السياق من هذا الى أمر النبي (ص) بارتقاب يومِ تأتي السماء

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفني في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجمايز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

بدخانه. وهذا كناية عن ظهور شَرِّه، لأن الإنسان إذا اشتد خوفه أظلمت عيناه، فيرى الدنيا كأنها مملوءة من الدخان. ثم ذكر السياق ما يكون من دعائهم له، سبحانه، أن يكشفه عنهم وإعلانِ استعدادهم للإيمان، وما يكون من استبعاده إيمانهم اذا كشفه عنهم، وقد جاءهم رسول مبينٌ فأعرضوا عنه وقالوا: مُعَلّمٌ مجنون. ثم ذكر السياق أيضاً أنه، سبحانه، يكشفه قليلاً، ليظهر كذبهم في دعوى استعدادهم للإيمان، اذا كشفه عنهم، وأنه، جلّت قدرته، يبطش بهم بعد هذا بطشته الكبرى، وينتقم منهم. ثم أتبع ذلك بذكر ما حصل لفرعون وقومه لبيان قدرة الله تعالى على إهلاكهم، وأن تلك سنته فيمن يُكذّب رسله ولا يؤمن به. ثم عاد السياق إليهم فذكر أنهم يُنْكرون ذلك ويزعمون أنهم لا يُبعثون؛ ويطلبونَ، ممن يعتقد ذلك، أن يبعث لهم آباءهم إن كان صادقاً في دعواه. وأورد السياق ردَّه سبحانه عليهم بأنهم ليسُوا أقوى من قومِ تُبّعٍ الذين أهلكهم لإجرامهم، وبأنه، جلَّ وعلا، لم يخلق السماوات والأرض وما بينهما عبثاً، وإنما خلق ذلك لحكمة لا تظهر إلاّ بأن يكون هناك بعث بعد الموت، لأنه لا بُدَّ من يومٍ يَفْصِلُ فيه بينهم أجمعين، فلا يُغنيَ فيه مولًى عن مولًى شيئاً، وتكون شجرة الزَّقُّوم طعام الأثيم، ويكون المتّقون في مقام أمين.

ثم خُتمت السورة بمثل ما بدأت به، فقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

مكنونات سورة «الدخان»(*)

١ ـ ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾ [الآية ٣].

قال عِكْرِمة: ليلة القَدْر. أخرجه ابنُ أبي حاتم.

وقيل: ليلة النِّصْف من شَعْبان[1]. حكاه ابنُ عَسْكَر[2].

٢ ـ ﴿طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ٤٤﴾.

قال سعيد بن جُبير: هو أبو جَهْل. أخرجه ابنُ أبي حاتم[3].

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِماتِ الأقران في مُبْهَمات القرآن» للسّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) قال ابن كثير في «تفسيره» ٤/١٣٧: «ومن قال إنها ليلة النصف من شعبان، كما روي عن عكرمة، فقد أبعد النُّجعة، فإن نص القرآن أنها في رمضان» أي في سورة القدر.

(٢) والطبري في «تفسيره» ٢٥/٦٤، وصوّب أنها في ليلة القدر.

(٣) وأخرجه الطبري ٢٥/٧٨ عن ابن زيد.



المبحث الرابع

لغة التنزيل في سورة «الدخان»(*)

١ ـ وقال تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴿٢٩﴾﴾.

أي: لما جاء وقت هلاكهم لم يُنْظَرُوا الى وقت آخر، ولم يُمْهَلوا إلى الآخرة. والإنظار: الإمهال.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴿٤٧﴾﴾.

أي: فقُودوه بعنف وغلظة، وهو أن يؤخذ بتلبيب الرجل، فيُجَرّ الى حَبْس أو قتل. ومنه العُتُلُّ، أي: الغليظ الجافي.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المعاني اللغوية في سورة «الدخان»(*)

قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝ أَمْرًا﴾ وقال: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الآية ٦] بانتصابه على «إنّا أنزلْناهُ أمراً وَرَحْمَةً» في الحال.

وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ﴾ [الآية ٤٢] بجعله بدلاً من الاسم المضمر في ﴿يُنصَرُونَ ۝﴾ وإن شئت جعلته مبتدأ. وأضمرت خبره تريد «إلاّ مَنْ رَحِمَ اللهُ فَيُغْنِي عَنْه».

وقال تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝﴾ أي، والله أعلم، «جَعَلْنَاهُم أزواجاً بالحور»، ومن العرب من يقول «عِينٌ حِيرٌ».

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.



المبحث السادس

لكل سؤال جواب في سورة «الدخان»(*)

إن قيل: الخلاف بين النبي (ص) ومنكري البعث إنما كان في الحياة بعد الموت لا في الموت، فلِمَ قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ﴾، ولم يقل إلا حياتنا، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ [المؤمنون/ ٣٧] وما معنى وصف الموتة بالأولى، كأنهم وُعدوا موتة أخرى، حتى نَفَوْها وجحدوها وأثبتوا الموتة الأولى؟

قلنا: لمّا وُعدوا موتة تكون بعدها حياة نَفَوا ذلك، كأنهم قالوا: لا تقع في الوجود موتة تكون بعدها حياة، إلا ما كنا فيه من موتة العدم، وبعثنا منه الى حياة الوجود. وقيل إنهم نَفَوا بذلك الموتة الثانية في القبر، بعد إحيائهم لسؤال مُنْكر ونكير.

فإن قيل لِمَ قال تعالى: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾ والعذاب لا يصب، وإنما يصب الحميم، كما في قوله تعالى في موضع آخر: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾﴾ [الحج]؟

قلنا: هو استعارة ليكون الوعد أهول وأهيب، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾ [الفجر] وقوله تعالى: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ [البقرة/ ٢٥٠]، وقول الشاعر:

صَبَّتْ عَلَيهم صُروفُ الدَّهْرِ مِنْ صَبَبِ

فإن قيل: لِمَ وعد الله أهل الجنة

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

بلبس الإستبرق وهو غليظ الديباج في قوله تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ مع أن لبس الغليظ من الديباج عند السعداء من أهل الدنيا عيب ونقص؟

قلنا: كما أن رقيق ديباج الجنة وهو السندس، ولا يماثل رقيق ديباج الدنيا إلا في الاسم فقط، فكذلك غليظ ديباج الجنة. وقيل السندس لباس السادة من أهل الجنة، والإستبرق لباس العبيد والخدم إظهاراً لتفاوت المراتب.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى في وصف أهل الجنة: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الآية ٥٦] مع أن الموتة الأولى لم يذوقوها في الجنة؟

قلنا: قال الزجاج والفراء «إلاّ» هنا بمعنى سوى كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء/٢٢] وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود/١٠٨]. الثاني: أن «إلاّ» بمعنى بعد كما قال بعضهم في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾. الثالث: أنّ السعداء، إذا حضرتهم الوفاة، كشف لهم الغطاء، وعرضت عليهم منازلهم ومقاماتهم في الجنة، وتلذذوا في حال النزع بروحها وريحانها، فكأنهم ماتوا في الجنة، وهذا قول ابن قتيبة رحمه الله.

المعاني المجازية في سورة «الدخان»(*)

في قوله سبحانه: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾ استعارة، وقد مضى الكلام على مثلها في بني إسرائيل. والمراد، والله أعلم، تبيين كل أمر حكيم في هذه الليلة، حتى يصير كَفَرْق الصبح في بيانه، أو مَفْرِق الطريق في اتضاحه. ومنه قولهم: فرقت الشَّعر. إذا خلّصت بعضه من بعض، وبيّنت مخطَّ وسطه بالمِدْرَى[1] أو بالإصبع.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾﴾ استعارة. والمراد بالعُلُوّ هٰهنا: الاستكبار على الله سبحانه، وعلى أوليائه.

ويوصَف المستكبر في كلامهم بأن يُقال: قد شمخ بأنفه. وهذه الصفة مِثْلُ وصفه بالعلوّ. لأنّ الشامخ: العالي.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص/٤] أي تجبّر فيها، واستكبر على أهلها. وليس يراد بذلك العلوُّ الذي هو الصعود. وإنما يراد به العلوُّ الذي هو الاستكبار والعتوُّ. وضدُّ وصفهم المستكبر بالعلوّ والتطاول، وَصْفُهُم المتواضع بالخشوع والتضاؤل.

وفي قوله سبحانه: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾. استعارة. وقد قيل في معناها أقوال: أحدها أن البكاء هٰهنا بمعنى الحزن، فكأنه تعالى قال: فلم تحزن عليهم السماء والأرض بعد هلاكهم، وانقطاع

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

(1) المِدْرَى: المشط الذي يُذرى به الرأس، ويُمَشّط.

آثارهم. وإنما عبَّر سبحانه عن الحزن بالبكاء، لأن البكاء يصدر عن الحزن، في أكثر الأحوال. ومن عادة العَرَب أن يَصِفُوا الدّار إذا ظَعَنَ عنها سُكّانها، وفارقها قُطّانها بأنها باكية عليهم، ومتوجعة لهم، على طريق المجاز والاتساع، بمعنى ظهور علامات الخشوع والوحشة عليها، وانقطاع أسباب النعمة والأنَسَة عنها.

ووجه آخر هو أن يكون المعنى: لو كانت السماوات والأرض من الجنس الذي يصح منه البكاء لم تبكيا عليهم، ولم تتوجّعا لهم، إذ كان الله سبحانه عليهم ساخطاً، ولهم ماقِتاً.

ووجه آخر: قيل معنى ذلك: ما بكى عليهم من السماوات والأرض، ما يبكي على المؤمن عند وفاته، من مواضع صلواته، ومَصَاعِد أعماله، على ما وَرَد الخَبَرُ به[1].

وفي ذلك وجهان آخران يخرج بهما الكلام عن طريق الاستعارة، فأحدهما أن يكون المعنى: فما بكى عليهم أهل السماء والأرض، ونظائر ذلك في القرآن كثيرة. والآخر أن يكون المعنى أنه لم ينتصر أحدٌ لهم، ولم يَطْلُب طالب بثأرهم.

ومضى في أشعار العرب: بَكَيْنا فلاناً بأطراف الرماح، وبمضارب الصفاح. أي طلبنا دمه، وأدركْنا ثأره.

---

(١) روى يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله (ص): «ما من مؤمن إلا وله في السماء بابان: باب ينزل منه رزقه، وباب يدخل منه كلامه وعمله، فإذا مات فقداه، فبكيا عليه. ثم تلا قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾. انظر «الجامع لأحكام القرآن» جـ١٦ ص ١٤٠ وقال علي وابن عباس رضي الله عنهما: إنه يبكي مصلاه من الأرض، ومصعد عمله من السماء. (المصدر نفسه).



سورة الجَاثِيَة

٤٥



أهداف سورة «الجاثية»(*)

سورة «الجاثية» سورة مكية نزلت في الفترة الأخيرة من حياة المسلمين بمكة، بعد الإسراء وقبيل الهجرة، وآياتها ٣٧ آية نزلت بعد سورة «الدخان»، ولهذه السورة اسمان: سورة «الجاثية» لقوله تعالى:

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ﴾.

وسورة «الشريعة» لقوله:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾.

الغرض من السورة

تحمل سورة الجاثية الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى، والرد على الدهرية الذين لا يؤمنون به، وينكرون البعث بعد الموت، وقد دعت السورة إلى هذا تارة بالدليل، وتارة بالترهيب والترغيب، شأنها في ذلك شأن السورة السابقة، وشأن السورة التي ذكرت قبلها ووافقتها في هذا الغرض، كما وافقتها في الحروف التي ابتدأت بها، ولهذا ذكرت هذه السورة معها، وسميت مجموعة هذه السور بالحواميم، نسبة إلى بدايتها بقوله تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾.

وقال الفيروزآبادي: معظم مقصود سورة «الجاثية» هو: بيان حجة التوحيد، والشكاية من الكفار والمنكرين، وبيان النفع والضر

(*) انتقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

والإساءة والاحسان[1] وبيان شريعة الإسلام والإيمان، وتهديد العصاة والخائنين من أهل الإيمان، وذم متابعي الهوى، وذل الناس في المحشر، ونسخ كتب الأعمال من اللوح المحفوظ، وتأبيد الكفار في النار وتحميد الرب المتعال بأوجز لفظ وأفصح مقال[2]، في قوله جلّ وعلا:

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

سمات السورة

لاحظنا أن سورة الدخان تتميز بقصر الآيات، وعنف الإيقاع فيها كأنه مطارق تقرع القلوب. وسورة الجاثية بجوارها تسير في يسر وهوادة وإيضاح هادئ وبيان دقيق عميق.

والله سبحانه خالق القلوب، ومُنزِل هذا القرآن، يأخذ القلوب تارةً بالقرع والطرق، وتارة باللمس الناعم الرفيق، وتارة بالبيان الهادئ الرقيق، حسب تنوّعها هي وأخلافها. فمن الناس من ينفع معه الزجر والوعيد، ومنهم من يأسره التوجيه الهادي الرشيد، والقلب الواحد يتقلّب على حالات متعدّدة، والله يختار له ما يناسب، وهو سبحانه اللطيف الخبير، السميع البصير. وقد كان من دعاء النبي (ص): «اللهم يا مُقَلِّب القلوب والأبصار، ثَبِّت قلبي على دينك»، فقالت عائشة: يا رسول الله أراك تُكثر من هذا الدعاء... فقال النبي: يا عائشة، إن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن، يقلبها كيف يشاء.

منهج السورة

تُصوِّر سورة الجاثية جانباً من استقبال المشركين للدعوة الإسلامية، وطريقتهم في مواجهة حُججها وآياتها، وتعنّتهم في مواجهة حقائقها وقضاياها، واتّباعهم للهوى اتّباعاً كاملاً، في غير ما تَحَرُّج من حقّ واضح، أو برهان ظاهر. كذلك تُصوِّر كيف كان القرآن يعالج قلوبهم الجامحة، الشاردة مع الهوى، المُغلَقة دون الهدى. وهو يواجهها بآيات الله القاطعة، العميقة التأثير والدلالة، ويذكّرهم بعذابه،

(١) لعلّه يقصد الإشارة إلى آيات الله الكونية في نفع العباد في الدنيا ثم في عقوبة الكفّار في الآخرة.

(٢) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ١/ ٤٢٦.

ويصوّر لهم ثوابه، ويقرّر لهم سُنَنَهُ، ويُعَرِّفهم بنواميسه الماضية في هذا الوجود.

درسان في السورة

سورة الجاثية وحدة في علاج موضوعها، وهذه الوحدة تشتمل على درسين:

الدرس الأول: يتناول أدِلّة الشرك بالتفنيد، وأدلة الإيمان بالتوضيح والتأييد.

والدرس الثاني: يَعْرِض عناد الكافرين في الدنيا، ثم يَذْكر أحوالهم في مشاهد القيامة.

شبهات الكفر وأدلة الإيمان

تبدأ سورة الجاثية بهذين الحرفين حم. والملاحظ أن هذه الأحرف التي تُفتتح بها السور يتبعها عادة الحديث عن القرآن، مما يشير الى أنها نزلت للتنويه به، وتلفت الأنظار إلى خصائصه المتميّزة، وتبرهن بذلك على أنه ليس من صنع البشر، وإنّما هو من عند الله:

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾.

وتعرض أدلة الإيمان والتوحيد، وتلفت الأنظار إلى جلال الله سبحانه، ودلائل قدرته جلّ وعلا في السماء والأرض، والخلق والدوابّ، والليل والنهار، والمطر والزرع والرياح، حتى تأخذ على النفس أقطارها، وتواجهها بالحجج والبراهين ساطعة واضحة فتقول:

﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾.

ومن خلال الآيات التالية، نرى فريقاً من الناس مصراً على الضلالة مكابراً في الحق، شديد العناد، سيِّئ الأدب في حق الله وحق كلامه.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾﴾.

ونرى جماعة من الناس، ربما كانوا من أهل الكتاب، سيِّئي التصوير والتقدير، لا يقيمون وزناً لحقيقة الإيمان الخالصة، ولا يُحسّون الفارق

الأصيل بينهم وهم يعملون السيئات، وبين المؤمنين الذين يعملون الصالحات؛ والقرآن يُشعرهم بأن هناك فارقاً أصيلاً في ميزان الله بين الفريقين:

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١)﴾.

ونرى فريقاً من الناس لا يعرف حكماً يرجع إليه إلاّ هواه فهو إلهه الذي يعبده، ويطيع كل ما يراه؛ نرى هذا الفريق مصوّراً تصويراً فذاً في هذه الآية التي تُبْدي العجب من أمره، وتشهَر بغفلته وعماه.

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣)﴾.

أرأيت كيف تناولت هذه السورة الهادئة، أصناف المشركين وفرقهم المناوئة للدعوة؟ وربما كان هؤلاء جميعاً فريقاً واحداً من الناس يصدر منه هذا وذاك، ويصفه القرآن في السورة هنا وهناك، كما يجوز أن يكونوا فِرقاً متعددة.

وعلى أي حال فقد واجه القرآن هؤلاء الناس بصفاتهم تلك وتصرفاتهم، وتحدث عنهم في هذه السورة ذلك الحديث، كذلك واجههم الله تعالى بآياته في الآفاق، وفي أنفسهم، وفي البر والبحر؛ يقول سبحانه:

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣)﴾.

ويستغرق الدرس الأول من السورة الآيات [١ ـ ٢٣].

عناد الكافرين وعقابهم يوم الدين

يشمل الدرس الثاني من السورة الآيات [٢٤ ـ ٣٧].

ويبدأ بعرض أقوال المشركين عن الآخرة وعن البعث والحساب، ودعواهم أنّ الأيام تمضي، والدهر ينطوي، فإذا هم أموات، والدهر في ظنهم هو الذي يُنهي آجالهم، ويُلحق بأجسامهم الموت فيموتون؛ وقد فنّد القرآن هذه الدعوى وبيّن أنها لا تستند إلى حقيقة أو يقين، وإذا قرعتهم

الآيات الدالة على ثبوت البعث لم يجدوا لهم حجة إلا أن يقولوا:

﴿أَتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ٢٥﴾.

والله سبحانه له حكمة في خلق الناس، فقد خلقهم للاختبار والابتلاء في الدنيا قبل الموعد الذي قدره وفق حكمته العليا.

والله هو الذي يُحيي وهو الذي يُميت؛ فلا عجب، إذاً، في أن يُحيي الناس ويجمعهم الى يوم القيامة، وهو سبحانه مالك السماوات والأرض، وهو القادر على الإنشاء والإعادة.

مشاهد القيامة

تعرض الآيات الأخيرة من سورة «الجاثية» مشاهد الآخرة ظاهرة ملموسة للعين، ومن خلال الآيات ترى المشركين وقد جَثَوْا على الرُكَبِ متميّزين أُمّةً أُمّةً في ارتقاب الحساب المرهوب.

ثم يأخذون كتابهم وقد سُجِّلَ كلُّ شيء فيه، ونُسخت فيه كلُّ أعمالهم.

﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٢٨ هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٢٩﴾.

ثم تنقسم الحشود الحاشدة والأمم المختلفة على مدى الأجيال إلى فريقين اثنين: الذين آمنوا، وهؤلاء يُدخلهم ربهم في رحمته؛ والذين كفروا، وهؤلاء يَلْقَون التشهير والتوبيخ جزاء عنادهم؛ وعندئذٍ يظهر أمام الذين كفروا سيئات ماعملوا، ويحيق بهم المهانة والعذاب، ويسدل الستار عليهم، وقد أُوصدت عليهم أبواب النار:

﴿ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ٣٥﴾.

وهنا ينطلق صوت التحميد يعلن وحدة الربوبية في هذا الكون سمائه وأرضه، إنسه وجنّه، طيره ووحشه، وسائر ما فيه ومن فيه؛ فكلّهم في رعاية رب واحد، له الكبرياء المطلقة في هذا الوجود، وله العزة القادرة والحكمة المدبرة:

﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٣٦ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٣٧﴾.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ترابط الآيات في سورة «الجاثية»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة «الجاثية» بعد سورة «الدُّخان»، ونزلت سورة «الدخان» بعد الإسراء وقُبيل الهجرة، فيكون نزول سورة «الجاثية» في ذلك التاريخ أيضاً.

وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ وتبلغ آياتها سبعاً وثلاثين آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السورة الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى، والرد على الدهرية الذين لا يؤمنون به، وينكرون البعث بعد الموت. وقد دعي فيها إلى هذا تارة بالدليل، وتارة بالترهيب والترغيب، وشأنها في ذلك شأن السورة السابقة، وشأن السُّورِ التي ذُكرت قبلها ووافقتها في هذا الغرض، كما وافقتها في الحروف التي ابتدئت بها، ولهذا ذكرت هذه السورة معها.

إثبات وجود الله تعالى
الآيات [١ ـ ٢٣]

قال الله تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ فاستدل سبحانه على وجوده بآياته في السماوات والأرض، وفي خلق الإنسان والدوابِّ إلى غير هذا مما ذكره

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفني في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجماميز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

من الآيات، ثم أنذر بالهلاك من لا يؤمن بها، ويصِرُّ على الكفر مستكبراً بعد سماعها، وأخذ السياق في هذا إلى قوله تعالى: ﴿هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

ثم عاد السياق إلى الاستدلال على وجوده تعالى بتسخيره لنا البحر تجري الفُلكُ فيه بأمره، ولنبتغي من فضله ونشكره على تسخيره ذلك لنا. وترقى السورة من تسخير ذلك لنا إلى تسخيره، جلّ وعلا، لنا كل ما في السماوات ومافي الأرض جميعاً، ثم أمر الذين آمنوا بهذا أن يغفروا للذين يكفرون به ولا يَرجُون أيام الله، فأخذهم في هذا بالترغيب بعد ذلك الترهيب، وهوّن عليهم أمر كفرهم بأنْ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها، ثم إلى ربهم مرجعهم فيحكم بينهم، وأتْبَعَه ببيان مشابهة طريقتهم في ذلك لطريقة بني إسرائيل قبلهم، ليهوّن عليهم أيضاً بذلك أمرهم، فذكر سبحانه أنه آتاهم الكتاب والحكم والنبوة، إلى غير هذا مما أنعم به عليهم، فاختلفوا فيما آتاهم من ذلك بغياً وظلماً ، ثم ذكر للنبي (ص) أنه آتاه مثلهم شريعة من أمر الدين، وحذّره أن يختلف فيها كما اختلفوا باتّباع أهواء الجاهلين، فلا يُغنُوا عنه من عذابه شيئاً، لأن الظالمين بعضهم أولياء بعض، وهو وليُّ المتقين وحدهم، وهذا تَبْصِرة لمن يتبصَّر، وهدًى ورحمة لقوم يوقنون. ثم عاد السياق إلى تفصيل ما أجمله من الحكم بينهم، فذكر سبحانه أنه لا يُسَوّي في الحكم بين الذين اجترحوا السيئات والذين آمنوا وعملوا الصالحات، وأنه خلق السماوات والأرض بالحق، ولِتُجزى كلُّ نفس بما كسبت وهم لا يُظلمون: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

الرد على الدهرية
الآيات [٢٤ ـ ٣٧]

ثم قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ فذكر أنهم لا يؤمنون إلا بالحياة الدنيا، ويزعمون أن الدهر هو الذي يُهلكهم، وينكرون وجود إله يحييهم بعد موتهم

ويحاسبهم. ورد عليهم بأنهم لا يستندون في ذلك إلى علم ودليل. فإذا قرعتهم الآيات الدالة على ثبوت البعث لم يجدوا لهم حُجّةً إلا أن يقولوا ﴿ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝٢٥﴾ وقد أُمِر النبي (ص) أن يجيبهم بأن الله يحييهم ثم يميتهم ثم يجمعهم إلى يوم القيامة الذي لا ريب فيه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون. ثم ذكر، سبحانه، أنه يوم تقوم الساعة يخسر المُبْطلون، وأنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات يُدخلهم في رحمته، وأنّ الذين كفروا يقال لهم: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝٣١﴾ إلى غير هذا ممّا يقال لهم، وحينئذ تبدو لهم سيئات ما عملوا، ويحيق بهم ما كانوا به يستهزئون. ثم ذكر، جلّ جلاله، استحقاقه الحمد على ذلك، وختم السورة به: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٣٦ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٧﴾.




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

لغة التنزيل في سورة «الجاثية»(*)

قال تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٢٩﴾.

أي: إنّا كنا نَستكتِبُ الملائكة أعمالكم.

فالاستنساخ: طلب النسخ، أي: الكتابة، لا كما هو شائع في اللغة المعاصرة.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المعاني اللغوية في سورة «الجاثية»(*)

قال تعالى: ﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾، [الآية ٢١]. من فسر «المحيا» و«الممات» للكفار والمؤمنين فقد يجوز في هذا المعنى نصب «السواء» ورفعه: لأن من جعل «السواء» مستوياً فينبغي له أن يرفعه: لأنه الاسم، إلاّ أن ينصب المَحْيَا والممات على البدل. ونصب «السواء» على الاستواء.

وقال: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا﴾ [الآية ٩] ثم قال: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا﴾ [الآية ١٠]. فجمع لأنه قد قال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ⑦﴾؛ فهو في معنى جماعة مثل الأشياء التي تجيء في لفظٍ واحدٍ، ومعناها معنى جماعة؛ وقد جعل «الذي» بمنزلة «من» في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ㉝﴾ [الزمر] فـ «الذي» في لفظٍ واحدٍ. ثم قال ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ㉝﴾ [الزمر].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [الآية ٣١] أي: فَيُقَالُ لَهُم: «أَلَمْ تَكُن آياتِي تُتْلَى عَلَيْكُم» ودخلت الفاء لمكان «أمّا».

وقال تعالى: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا ㉜﴾ [الآية ٣٢] أي: مَا نَظُنُّ إلاّ ظَنّاً.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرخ.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

لكل سؤال جواب في سورة «الجاثية»(*)

إنْ قيل: كيف طابق الجواب السؤال في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

قلنا: وجه المطابقة أنهم أُلزموا بما هم مقرّون به من أنّ الله تعالى هو الذي أحياهم أوّلاً ثمّ يُميتهم؛ ومن كان قادراً على ذلك كان قادراً على جمعهم يوم القيامة، فيكون قادراً على إحياء آبائهم.

فإن قيل: لِمَ أضيف الكتاب إلى الأمّة ثم أضيف إليه سبحانه، في قوله: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ [الآية ٢٨] وقوله: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾ [الآية ٢٩].

قلنا: الإضافة تصح بأدنى ملابسة. وقد صحت إضافة الكتاب إليهم، بكون أعمالهم مثبتة فيه. وصحت إضافة الكتاب إليه تعالى، بكونه مالكه الحقّ؛ وكونه آمر الملائكة أن يكتبوا فيه أعمالهم.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرخ.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

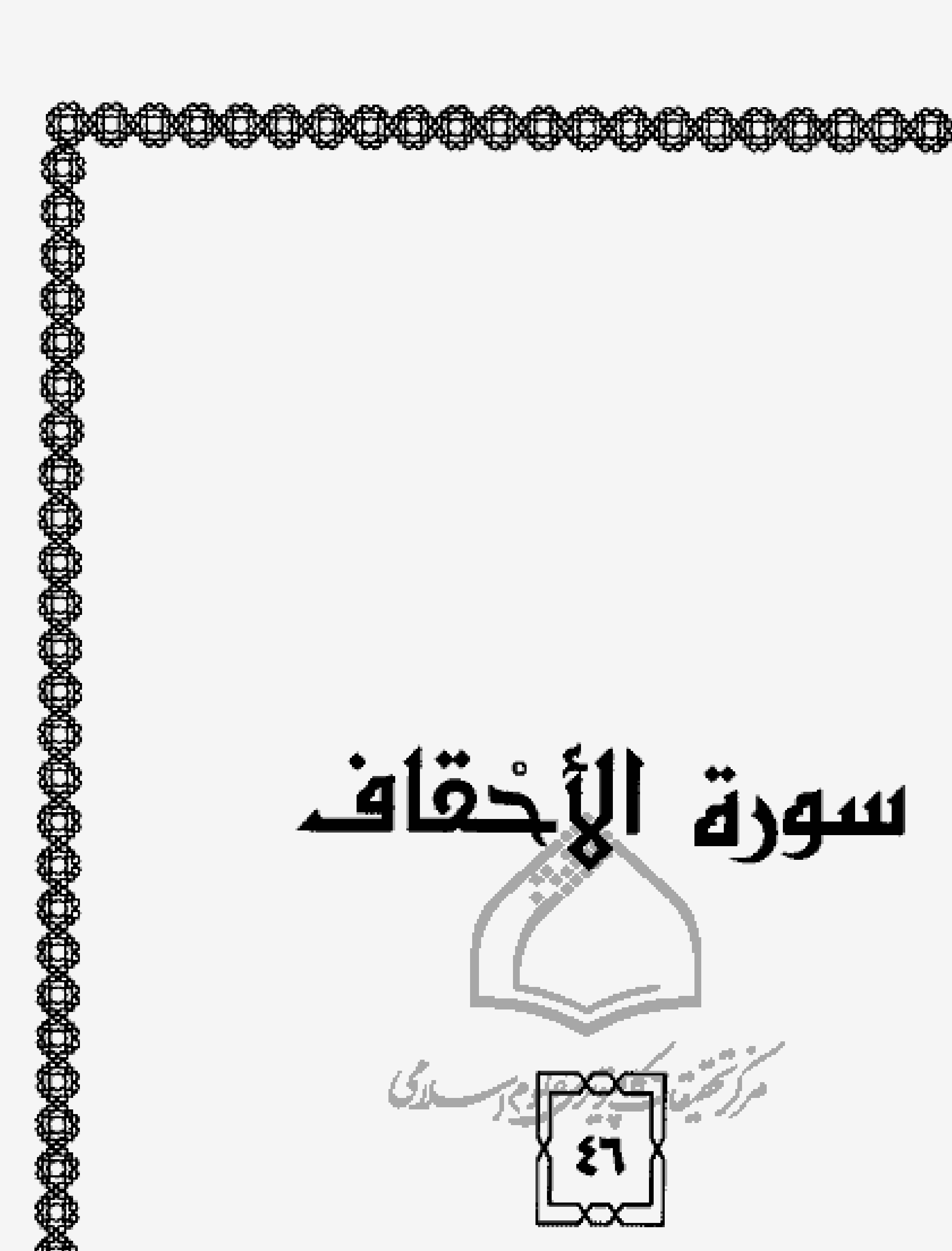
المعاني المجازية في سورة «الجاثية»(*)

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾ [الآية ١٨] استعارة، لأن الشريعة في أصل اللغة اسم للطريق المفضية إلى الماء المورود، وإنما سُمِّيَتِ الأديان شرائع لأنها الطرق المُوصِلة إلى موارد الثواب، ومنافع العباد، تشبيهاً بشرائع المناهل التي هي مَدْرَجَةٌ إلى الماء وموصلةٌ إلى الرِّواء.

وفي قوله سبحانه: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الآية ٢٩]، استعارة، وقد مضت الإشارة إلى نظيرها فيما تقدم. والمعنى: الكتاب ناطق من جهة البيان، كما يكون الناطق من جهة اللِّسانِ. وشهادة الكِتَاب ببيانه، أقوى من شهادة الإنسان بلسانه.

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



سورة الأحقاف

٤٦



أهداف سورة «الأحقاف»(*)

سورة الأحقاف سورة مكية، آياتها ٣٥ آية، نزلت بعد سورة «الجاثية».

سورة الإيمان والتوحيد

تَعْرِض سورة الأحقاف قضية الإيمان بواحدانية الله، وربوبيته المطلقة لهذا الوجود ومن فيه وما فيه، والإيمان بالوحي والرسالة، والإيمان بالبعث وما وراءه من حساب وجزاء على ما كان في الحياة الدنيا من عمل وكسب، من إحسان وإساءة.

هذه الأسس الأولى التي يقيم عليها الإسلام بناءه كله، ومن ثَمَّ عالجها القرآن في كل سُوَرِهِ المكية علاجاً أساسياً، وظل يتكئ عليها كذلك في سُوَرِه المدنية كلما هَمَّ بتوجيهٍ أو تشريعٍ للحياة بعد قيام الجماعة المسلمة والدولة الإسلامية. ذلك أن طبيعة هذا الدين تجعل قضية الإيمان بوحدانية الله سبحانه، وبعثة محمد (ص) والإيمان بالآخرة وما فيها من جزاء، هي المحور الذي تدور عليه آدابه ونُظُمه وشرائعه كلها، وترتبط به أوثق ارتباط، فتبقى حية حارّة تبعث تأثراً دائماً بذلك الايمان.

وتسلك السورة بهذه القضية الى القلوب كلّ سبيل، وتُوَقِّع فيها على كلّ وتر، وتَعْرِضها في مجالات شتى، مصحوبةً بمؤثرات كونية ونفسية وتاريخية. كما أنها تجعلها قضية الوجود كله، لا قضية البشر وحدهم، فتذكر طَرَفاً من قصة الجن مع هذا

(*) انتُقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

القرآن، كما تذكر موقف بعض بني إسرائيل منه، وتقيم من الفطرة الصادقة شاهداً، كما تقيم من بعض بني إسرائيل شاهداً سواءً بسواء.

ثم هي تطوف بتلك القلوب في آفاق السماوات والأرض، وفي مشاهد القيامة في الآخرة، كما تطوف بهم في مصرع قوم «هود»، وفي مصارع القرى حول مكة، وتجعل من السموات والأرض كُتُباً تنطق بالحق، كما ينطق هذا القرآن بالحق على السواء.

أربعة مقاطع

تشتمل سورة الأحقاف على أربعة عناصر متماسكة، كأنها عنصر واحد ذو أربعة مقاطع:

١ ـ نقاش المشركين

يبدأ المقطع الأول بالحرفين حاء وميم، في قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١﴾. وهي بداية تكررت في ست سور سابقة تسمى بالحواميم. وهي: «غافر»، و«فُصِّلت»، و«الشورى»، و«الزخرف»، و«الدُّخان»، و«الجاثية»؛ والسورة السابعة هي «الأحقاف».

ونَلْحَظ أن هذه السور السبع تبدأ بالحرفين حاء وميم، ثم تُعَقَّب بذكر الكتاب، مما يؤيد أن هذه الأحرف نزلت على سبيل التحدي لأهل مكة أن يأتوا بمثل هذا القرآن.

وتشير سورة الأحقاف في بدايتها الى القرآن فتقول: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾. وعَقَبْها مباشرة الإشارةُ الى كتاب الكون وقيامه على الحق وعلى التقدير والتدبير. ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الآية ٣] فيتوافى كتاب القرآن المتلوّ، وكتاب الكون المنظور على الحق والتقدير.

وبعد هذا الافتتاح القوي الجامع، يأخذ السياق في عرض قضية العقيدة مبتدئاً بإنكار ما كان عليه القوم من الشرك الذي لا يقوم على أساس من واقع الكون، ولا يستند الى حق من القول ولا مأثور من العلم. ويعرض بعد هذا سوء استقبالهم للحق الذي جاءهم به محمد رسول الله (ص)؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾.

ثم يسوق، عز وجل، إنكارهم للحق وتطاولهم على الوحي، واتهامهم

النبي (ص) بالكذب والافتراء. ويرد عليهم سبحانه بأن الأمر أَجَلُّ من مقولاتهم الهازلة، وادّعاءاتهم العابثة. اذ هو أمْرُ الله العليم الخبير، يشهد ويقضي، وفي شهادته وقضائه الكفاية: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨)﴾.

ثم يبيّن أن محمداً (ص) ليس بِدْعاً من الرسل فقد سبقه رسلٌ كثيرون، فهو مبلغ عن الله سبحانه، وملتزم بوحي السماء. ويسوق حجة أخرى على صدق رسالته، تتمثل في موقف بعض من اهتدى للحق من بني إسرائيل، حينما رأى في القرآن مصداق ما يعرف من كتاب موسى (ع). ويستطرد السياق في عرض تَعِلاّتِهِمْ ومعاذيرهم الواهية على هذا الإصرار، وهم يقولون عن المؤمنين، كما ورد في التنزيل: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الآية ١١]. ويشير الى كتاب موسى (ع) مِن قَبْلِه، والى تصديق هذا القرآن له، والى وظيفته ومهمته: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ (١٢)﴾.

وفي نهاية المقطع الأول يصوّر لهم جزاء المحسنين، ويفسّر لهم هذه البشرى التي يحملها إليهم القرآن الكريم بشرطها، وهو الاعتراف بربوبيّة الله وحده، والاستقامة على هذا الاعتقاد ومقتضياته: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣)﴾، فقد آمنوا بالله سبحانه، وأعلنوا ذلك، واستقاموا على منهج الايمان، فاستحقوا حياة كريمة في الدنيا ونعيماً خالداً في الآخرة.

٢ ـ الفطرة السليمة والفطرة السقيمة

يحتوي المقطع الثاني على ست آيات هي الآيات [١٥ ـ ٢٠]، وفيها حديث عن الفطرة في استقامتها وفي انحرافها، وفيما تنتهي إليه حين تستقيم، وما تنتهي إليه حين تنحرف.

يبدأ بالوصيّة بالوالدين، وكثيراً ما تَرِدُ الوصيّة بالوالدين لاحقة للكلام عن العقيدة، لبيان أهمية الأسرة والعمل على ترابطها، وتذكير الانسان بأصل نعمته ورعايته.

وتذكّرنا الآيات بجهود الأم وفضلها في الحمل والولادة والرضاع.

«إنّ البويضة بمجرد تلقيحها بالخلية المنوية، تسعى للالتصاق بجدار الرحم وهي مزوّدة بخاصّية تمزيق جدار الرحم الذي تلتصق به، فيتوارد دم الأم الى موضعها حيث تسبح هذه البويضة دائماً في بركة من دم الأم الغني بكل ما في جسمها من خلاصات، وتمتصّه لتحيا به وتنمو وهي دائمة الأكل لجدار الرحم، دائمة الامتصاص لمادة الحياة، والأم المسكينة تأكل وتشرب، وتهضم وتمتص، لتصبّ هذا كلّه دماً نقياً غنياً لهذه البويضة الشرهة النهمة الأكول.

وفي فترة تكوين عظام الجنين يشتد امتصاصه للجير من دم الأم فتفتقر الى الجير، ذلك أنها تعطي محلول عظامها في الدم ليقوم به هيكل هذا الصغير، وهذا كله قليل من كثير.

ثم الوضع وهو عملية شاقة، ممزّقة، ولكن آلامها الهائلة كلّها لا تقف في وجه الفطرة، ولا تنسى الأم حلاوة الثمرة، ثمرة تلبية الفطرة، ومنح الحياة نبتة جديدة تفيض وتمتدّ، بينما هي تذوي وتموت.

ثم الرضاع والرعاية، حيث تعطي الأم عصارة لحمها وعظمها في اللبن، وعصارة قلبها وأعصابها في الرعاية، وهي، مع هذا وذلك، فَرِحة سعيدة، رحيمة ودود. لا تَمَلُّ أبداً، ولا تراها كارهة لتعب هذا الوليد، وأكبر ما تتطلع إليه من جزاء: أنْ تراه يسلم وينمو، فهذا هو جزاؤها الحبيب الوحيد»[1].

وقد تكررت وصية القرآن للأبناء ببِرِّ الآباء، لأنّ الوالدَين قدّما كل شيء، كالنبتة التي ينمو بها النبات فإذا هي قشة، وكالبيضة التي ينمو منها الكتكوت فإذا هي قشرة.

ومن الواجب رد الجميل والعرفان بالفضل لأهله، وأن يُحْسِنَ الإنسان الى أصله وأن يدعو لهما، وهو نوع من تكافل الأجيال. قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ

---

(١) في ظلال القرآن ٢٦/٢١.

﴿أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴿١٥﴾﴾.

وهذا النموذج، الذي نشاهده في الآية، نموذج للفطرة المستقيمة التي ترعى أصلها وتتعهد ذريتها، وهذا النموذج يقبل الله عمله ويحشره في أصحاب الجنة.

أما النموذج الثاني، فهو نموذج الانحراف والفسوق والضلال، نموذج ولد عاق يجحد معروف والديه وينكر البعث والجزاء ويقول﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴿١٧﴾﴾.

وهذا النموذج جدير بالخسران: لقد خسر اليقين والإيمان في الدنيا، ثم خسر النّعيم والرّضوان في الآخرة.

وينتهي هذا المقطع من السورة بعرض هذين النموذجين ومصيرهما في النهاية؛ ثم يعرض مشهداً من مشاهد القيامة حيث يعرض المتكبّرون على النار؛ وفي ذلك المشهد نرى الغائب شاهداً ماثلاً يستحث النّفوس على الهدى، ويستجيش الفِطَر السليمة القوية لارتياد الطريق الواصل المأمون.

٣ ـ قصة عاد

يتناول المقطع الثالث من السورة قصة عاد وهم قوم نبي الله هود (ع)، ويشمل الآيات [٢٠ ـ ٢٨].

والقصة هنا تخدم الفكرة وتؤيّدها: فقد أنكر أهل مكة رسالة النبي محمد (ص)، وأعرضوا عن دعوته. فجاء هذا المقطع يذكّرهم بأشباههم، وينذرهم أن يصيبهم ما أصاب السابقين.

﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ [الآية ٢١]. وأخو عاد هو هود عليه السلام، دعا قومه إلى التوحيد وحذّرهم من عذاب الله.

والأحقاف جمع حِقْف، وهو الكثيب المرتفع من الرّمال، وقد كانت منازل عادٍ على المرتفعات المتفرّقة في جنوب الجزيرة، يقال في حضرموت.

وقد أنذر أخو عادٍ قومه ودعاهم الى عبادة الله وحده، وحذرهم بطشه وانتقامه. ولم تؤمن عادٌ برسالة هود (ع)، وقابلت دعوته بسوء الظن وعدم الفهم والتحدي والاستهزاء، واستعجال العذاب الذي ينذرهم به. فلما رأوا العذاب، في صورة سحابة،

ظنوه مطراً مفيداً لهم: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

وتقول الروايات إنه أصاب القومَ حَرٌ شديد، واحتبس عنهم المطر، وَدَخِنَ الجَوُّ حولهم من الحرّ والجفاف، ثم ساق الله جلّ جلاله إليهم سحابة ففرحوا بها فرحاً شديداً وخرجوا يستقبلونها في الأودية وهم يحسبون فيها الماء ﴿قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾. وجاءهم الرد بلسان الواقع ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾.. وهي الريح الصرصر العاتية التي ذكرت في سورة أخرى كما جاء في صفتها: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات/٤٢].

لقد اندفعت الريح تحقق أمر الله، وتدمر كل شيء بأمر الله، فهلك القوم بجميع ما يملكون من أنعام ومَتاع وأشياء، وبقيت مساكنهم خالية موحشة لا دَيّارَ فيها ولا نافِخُ نار.

ويلتفت السياق الى أهل مكة يلمس قلوبهم، ويحرك وجدانهم، ويذكّرهم بأنّ الهالكين كانوا أكثر منهم تمكُّناً في الأرض، وأكثر مالاً ومتاعاً وقوّة وعلماً. فلم تُغْنِ عنهم قدرتهم ولا قوتهم، ولم يُغْنِ عنهم ثراؤهم. ولم ينتفعوا بسمعهم وأبصارهم وأفئدتهم، بل أصَمُّوا قلوبهم عن سماع الحق، ولم تُغْنِ عنهم آلهتهم التي اتّخذوها تقرُّباً إلى الله.

وكذلك يقف المشركون في مكة أمام مَصارع أسلافهم من أمثالهم، فيقفون أمام مصيرهم هم أنفسهم، ثمّ أمام الخطّ الثابت المطّرد المتّصل، خط الرسالة القائمة على أصلها الواحد الذي لا يتغيّر، وخط السُنّة الإلٰهيّة التي لا تتحوّل ولا تتبدّل. وتبدو شجرة العقيدة عميقة الجذور، ممتدّة الفروع، ضارِبةً في أعماق الزمان، سُنّةً واحدة، على اختلاف القرون واختلاف المكان.

لقد أهلك الله القرى التي كَذَّبت رُسُلَها في الجزيرة، كعادٍ بالأحقاف في جنوب الجزيرة، وثمودَ بالحِجْرِ في شمالها، وسبأ وكانوا باليمن، ومَدْيَنَ، وكانت في طريقهم الى الشام، وكذلك قرى قوم لوط وكانوا يمرون بها في رحلة الصيف الى الشمال.

وقد نوّعَ الله جلّ جلاله في آياته، لعلّ المكذّبين يرجعون الى ربّهم، ويثوبون الى رشدهم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

٤ ـ إيمان الجن

يتناول المقطع الرابع الحديث عن إيمان الجن ويشمل الآيات الأخيرة من سورة «الاحقاف».

وقد تحدث القرآن عن الجن فذكر أنّ أصلهم من نار، وأنّ منهم الصالحين ومنهم الظالمين، وأن لهم تجمّعات معيّنة تشبه تجمّعات البشر في قبائل وأجناس، وأن لهم قدرة على الحياة على هذا الكوكب الأرضي، ولهم قدرة على الحياة خارج هذا الكوكب. وللجن قدرة على التأثير في إدراك البشر، والإيعاز بالشرّ. قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾. ومن خصائص الجنّ أن يَرَوْا النّاسَ ولا يراهم النّاسُ، لقوله تعالى عن إبليس، وهو من الجن: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف/٢٧].

وقد تحدّثت الآيات الأخيرة من السورة عن إيمان الجن الذين استمعوا لهذا القرآن، فتنادوا بالإنصات، واطمأنت قلوبهم الى الإيمان، وانصرفوا إلى قومهم منذرين يدعونهم الى الله سبحانه، ويبشّرونهم بالغفران والنجاة، ويحذّرونهم الإعراض والضلال.

وهذا الأمر في ظاهره الخبر عن إيمان الجن، ومع ذلك، فهو يصوّر أثر هذا القرآن في القلوب. فعندما سمع الجن تلاوة القرآن قالوا: أنْصِتوا. وعندما تأثرت قلوبهم، انطلقوا الى قومهم يتحدثون عن القرآن والإيمان، ويعرضون دعوة الاسلام على قومهم. وبفضل القرآن صاروا دعاةً هُداةً، مَلَكَ القرآن عليهم نفوسهم، فانطلقوا يحملون الهداية والرحمة لقومهم، ثم يتحدثون عن الصلة الوثيقة بين القرآن والتوراة، بين محمد وموسى، صلوات الله وسلامه عليهما، وعلى الأنبياء والمرسلين كافّة، فالجميع من عند الله لهداية خلق الله:

﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠)﴾.

وهذا القول على لسان الجنّ يفيد ما بين الرسل جميعاً من آصرة الأُخُوّة. فربهم واحد، ودعوتهم واحدة، وفكرتهم أساسها هداية الناس ومحاربة الرذائل، والتعاون على الخير والمعروف. والعداء بين الأديان إنما جاء من سوء الفهم أو من تحريف الانسان للوحي.

كذلك وردت على لسان الجن إشارةٌ الى كتاب الكون المفتوح، ودلالته على قدرة الله الظاهرة في خلق السموات والأرض، الشاهدة لقدرته على الإحياء والبعث، وهي القضية التي يجادل فيها البشر، وبها يجحدون.

وبمناسبة البعث، يعرض السياق مشهداً من مشاهد القيامة يبدو فيه الكفار وهم يعترفون بالإيمان، بعد أن كانوا ينكرونه في الدنيا، ثم يقال لهم: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤)﴾.

وفي ختام السورة توجيه للرسول (ص) بالصبر والمصابرة فإنها طريق الرسل، وما ينبغي للدّعاة إلاّ الصبر والاحتمال.

مقصود السورة اجمالاً

ذكر الفيروزآبادي أن معظم سورة الأحقاف هو:

«إلزام الحجّة على عبادة الأصنام، والإخبار عن تناقض كلام المتكبّرين، وبيان نبوّة سيّد المرسلين محمّد (ص)، وتأكيد ذلك بحديث موسى (ع)، والوصيّة بتعظيم الوالدين، وتهديد المتنعّمين والمترفين، والإشادة بإهلاك عادٍ، والإشارة إلى الدعوة، وإسلام الجن، وإتيان يوم القيامة فجأة» واستقلال لَبْث اللاّبثين في قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥)﴾.

ترابط الآيات في سورة «الأحقاف»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة «الأحقاف» بعد سورة «الجاثية»، ونزلت سورة «الجاثية» بعد الإسراء وقبيل الهجرة، فيكون نزول سورة الأحقاف في ذلك التاريخ أيضاً.

وقد سُمّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى في الآية [٢١] منها ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾. وتبلغ آياتها خمساً وثلاثين آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السورة إنذار المشركين بالعذاب، وأخْذُهم مع هذا الدليل الى التصديق بالتوحيد والرسالة، وبهذا جُمِع فيها بين الأخذ بالترهيب والترغيب والأخذ بالدليل، كما جُمع بين ذلك في السُّوَر السّابقة، وهذا هو وجه المناسبة بينها وبين هذه السور.

إنذار الكفار بالعذاب
الآيات [١ ـ ٣٥]

قال الله تعالى ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ فذكر سبحانه أنه خلق السماوات والأرض لحكمة وأجلٍ ينتهي أمرهما بعد ذلك؛ وليس خَلْقُهما عبثاً، فلا بدّ بعد انتهائهما من الحساب والعقاب، ولا بدّ من رسول ينذرهم بهذا المآل،

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجمايز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

ولكنهم، لجهلهم وعنادهم، يُعرِضون عن هذا الإنذار، ويتمسّكون بما هم فيه من الشرك والضلال. ثم انتقل السياقُ من هذا الى تسجيل الجهل والعناد عليهم في شركهم وإعراضهم عما أُنذروا به، فطلب منهم، سبحانه، أن يخبروه عمّا خَلَق شركاؤهم من الأرض، أو يأتوه بكتاب مُنْزل أو دليل من العقل. وذكَر، عزّ وجلّ، أنه لا أضَلَّ ممّن يدعو من دونه جماداً لا يستجيب له الى يوم القيامة، وإذا حشر الناس تبرّأ من عبادتهم له. ثم انتقل السياق من هذا الى إعراضهم عمّا أُنذروا به وزَعْمِهم أنه سِحرٌ أو كَذِبٌ مُفْتَرَى، فأمر الله تعالى نبيّه (ص) بأن يجيبهم بأنه لوكان قد افتراه لعاجله الله بعقوبته، ولم يملكوا أن يدفعوا عنه شيئاً. ثم ذَكَر شبهة أخرى لهم فيه، وهي قولهم في الذين آمنوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الآية ١١]، وأجاب عنها بأنه أنزل التوراة قبله إماماً ورحمةً لبني إسرائيل، وهذا كتابٌ أنزله لهم بلسان عربيّ إنذاراً للذين ظَلَموا وبشرى للمحسنين، ثم بيّن عزّ وجلّ وَجْهَ كَوْنِهِ بُشْرَى لهم بأنهم إذا قالوا: ربُّنا الله ثمّ استقاموا، فلا خوف عليهم، وسيكونون من أصحاب الجنة خالدين فيها جزاءً بما كانوا يعملون. وذَكَر مِنْ أعظم ما يُجزَون عليه هذا الجزاء استجابَتَهم لوصيّته بالإحسان الى الوالدين، وقيامَهم بشكره على ما أنعم به عليهم. ثم ذَكَر، سبحانه، حديث الذي أساء إلى والديه، وقد أنذراه بعذاب الآخرة إن لم يؤمن بالله تعالى، لأن ذكر الضد يدعو الى ذكر ضده، وليأخذ في الوعيد بعد الأخذ في الوعد، فذكر أن مثل هذا قد حَقَّ عليه القول بالعذاب في أُممٍ قد خلت من قبلهم من الجن والإنس، وسلكوا في الضلال مسلكهم؛ وأن من هؤلاء الأمم قومَ عادٍ بالأحقاف، فقد أنذرهم أخوهم هود فكذّبوه فأُخِذُوا بريحٍ دمّرت عليهم مساكنهم؛ وكذلك ما حول مكة من القرى التي دُمّرت باليمن والشام، فلم ينصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة: ﴿بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه من استجاب للإنذار من الجن، بعد أن ذكر من أعرض عنه من الإنس، ليحملهم على الاستجابة للإنذار مثلهم، فذكر حديث استماع نفر من الجن للقرآن وإيمانهم به، وأنهم انصرفوا الى قومهم منذرين،

فأخبروهم بما سمعوا منه، ورَغَّبوهم في الإيمان وحذَّروهم من الكفر: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾.

ثم ختم تعالى السورة بمثل ما بدأها به من الإنذار، فَذَكَر قدرته جلَّ وعلا على إحياء الموتى وحسابهم، وأنذر الكفار بعرضهم على النار، وأنه يطلب منهم أن يعترفوا بأنها الحق فيعترفون، فيقال لهم ذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مكنونات سورة «الأحقاف»(*)

١ ـ ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الآية ١٠].

هو عبدُ الله بن سَلاَم. أخرجَهُ الطَّبَراني من حديث عوف بن مالك الأشجعي[١] بسندٍ صحيح.

وأخرجه ابنُ أبي حاتم من حديث سَعْد بن أبي وَقّاص. ومن طريق العَوْفي، عن ابن عبّاس[٢].

وقالَه مُجاهِد، وعِكْرِمة، وآخرون.

٢ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِماتِ الأقران في مُبْهمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) ونص الحديث كما في «مجمع الزوائد» ٧/ ١٠٥؛ نورده لما له من الفوائد في الكشف عن عناد بني إسرائيل ورفضهم الانصياع لحكم الحق.

«عن عوف بن مالك الأشجعي قال: انطلق النبي (ص)، وأنا معه، حتى إذا دخلنا كنيسة اليهود يوم عيدهم، فكرهوا دخولنا عليهم، فقال لهم رسول الله (ص): «يا معشر اليهود، أروني اثني عشر رجلاً منكم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، يحبط الله عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي عليه» فأسكتوا فما أجابه منهم أحد، ثم ردّ عليهم فلم يجبه أحد، ثم ثَلّث، فلم يجبه أحد. فقال: «أبيتم، فوالله لأنا الحاشر، وأنا العاقب، وأنا المقفّي؛ آمنتم أو كذّبتم ثمّ انصرف، وأنا معه، حتى كدنا أن نخرج، فإذا رجل من خلفه فقال: كما أنت يامحمد. فأقبل، فقال ذاك الرجل: أي رجل تعلمونني منكم يا معشر اليهود؟ قالوا: والله ما نعلم فينا رجلاً كان أعلم بكتاب الله، ولا أفقه منك، ولا من أبيك قبلك، ولا من جدّك قبل أبيك. قال: فإنّي أشهد بالله أنه نبي الله الذي تجدون في التوراة. قالوا: كَذَبْتَ ثم ردوا عليه، وقالوا فيه شرّاً. فقال رسول الله (ص): «كذبتم لن نقبل منكم قولكم». قال: فخرجنا ونحن ثلاثة: رسول الله (ص)، وأنا، وابن سلام. فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠﴾. قال الهيثمي: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح.

(٢) انظر «تفسير الطبري» ٢٦/ ٧.

﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الآية ١١].

قال ابنُ عَسْكر: قِيلَ: قائِل ذلك بنو عامر وغَطَفَان، والسَّابِقُون: أَسْلَم، وغِفَار، وجُهَيْنَة، ومُزَيْنَة.

وقيل: قاله مشركو قريش، حين أسلمت غفار.

وقيل: المراد بالسابقين: بلال، وعمار، وصهيب.

٣ ـ ﴿وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ [الآية ١٧].

قال السُّدِّي: نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصِّدِّيق، وأبيه أبي بكر، وأمّه أمّ رومان. أخرجه ابنُ أبي حاتم. وأخرج مثله عن ابن جُرَيج.

وأخرج عن مُجاهد أنه عبدالله بنُ أبي بكر، وأنكَرَتْ ذلك عائشةُ، كما أخرجه البخاري عنها؛ وقالت: نزلت في فلان بن فلان. كذا في «الصحيح»[1] مكنياً.

٤ ـ ﴿قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ﴾ [الآية ٢٤].

قال ذلك: بَكْرُ بنُ معاوية، من قومِ عَادٍ. ذكره ابنُ عَسْكَر، عن ابن جُرَيج.

٥ ـ ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الآية ٢٩].

أخرج ابنُ أبي حاتم[2] عن ابن عباس قال: هم جِنُّ نَصِيبين.

وأخرج ابنُ مَرْدُوَيه من طريق عِكْرِمة، عن ابن عبّاس: أنّهم كانوا سبعة من أهل نَصِيبين.

ومن طريق سعيد بن جُبير عنه قال: كانوا تسعة.

وأخرج ابنُ أبي حاتم عن قَتَادة قال:

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٢٧)، ونصه: «كان مروان على الحجاز استعمله معاوية، فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه؛ فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئاً، فقال خذوه. فدخل بيت عائشة، فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل الله فيه ﴿وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ﴾ فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن إلا أن الله أنزل عُذري»، أي في سورة النور والتي فيها قصة الإفك وبراءة عائشة رضي الله عنها، وقول عائشة: نزلت في فلان بن فلان، جاءت، كما نص عليها الحافظ في «فتح الباري» ٨/ ٥٧٧ من رواية الإسماعيلي: للصحيح؛ وفيه، وفي رواية الإسماعيلي «فقالت عائشة: كذب والله، ما نزلت فيه، والله ما أُنزلت إلا في فلان بن فلان الفلاني. وفي رواية له: لو شئت أن أسمّيه لسمّيته، ولكن رسول الله (ص) لعن أبا مروان ومروان في صلبه».

(٢) والطبري في «تفسيره» ٢٦/ ٢٠.

الجنّ الذين صُرِفُوا الى النبيّ (ص) من المَوْصِل، وكان أشرافهم من نَصِيبين.

وعن زِرّ بن حُبَيْش قال: كانوا تسعة أحدهم: زَوْبَعَة.

وعن مجاهد: أنهم كانوا سبعة: ثلاثة من أهل حران، وأربعة من أهل نَصِيبين.

وذكر السُّهَيْلي: أنّ ابنَ دريد ذكرهم خمسة.

وفي «تفسير إسماعيل بن أبي زياد»: هم تسعة.

وقد أخرج ابنُ مَرْدُوَيه من طريق الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عبّاس: أنهم كانوا اثني عشر ألفاً من جزيرة الموصل.

وأخرجه ابنُ أبي حاتم أيضاً عن عِكْرِمة.

٦ ـ ﴿أُوْلُوا ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الآية ٣٥].

أخرجه ابنُ أبي حاتم عن ابن زيد قال: كُلُّ الرسل كانوا أولي عزم[1].

وأخرج عن الحسن قال: هم من لم تُصِبْهُ فتنةٌ من الأنبياء.

وعن أبي العَالية قال: هم نوح (ع)، وهود (ع)، وإبراهيم (ع)، ومحمد (ص) رابعهم.

وعن سعيد بن عبد العزيز قال: هم نوح، وهود، وإبراهيم، وموسى، وشعيب عليهم الصلاة والسلام.

وعن السُّدِّي قال: هم الذين أمِروا بالقِتال من الأنبياء؛ وبَلَغَنا أنَّهُمْ ستة: إبراهيم، وموسى، وداود، وسليمان، وعيسى، ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً.

وعن ابن جُريج قال: ليس منهم آدم، ولا يونس، ولا سليمان، ولكنْ إسماعيلُ، ويعقوب، وأيّوب.

وعن الضَّحّاك، عن ابن عباس قال: هم نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى ومحمد (ص).

---

(١) وأخرجه أيضاً الطبري في «تفسيره» ٢٦/ ٢٤.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

لغة التنزيل في سورة «الأحقاف»(*)

١ ـ قال تعالى: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ [الآية ٤].

الأثارة: البقيّة.

أقول: وهي قريبة من «الأثر»، الذي فيه معنى ما بقي من الشيء.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الآية ٩].

البِدْعُ: البديع كالخِفّ بمعنى الخفيف.

والمعنى: ما كنت بدعاً من الرسل فآتيكم بكل ما تقترحونه، وأُخبِركم بكل ما تسألون عنه من المغيّبات، فإنّ الرسل لم يكونوا يأتون إلاّ بما آتاهم الله من آياته، ولا يُخبرون إلاّ بما أوحيَ إليهم.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ [الآية ١٥].

أي: ألهمني وأولعني به.

وتأويله في اللغة: كُفّني عن الأشياء إلاّ عن شكر نعمتك، وكُفّني عمّا يُباعِدُني عنك.

أقول: وهذا يدفعنا الى ان نقرأ قوله تعالى:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾﴾ [فصّلت].

والمعنى: أن يُحبَس أوّلهم على آخِرهم، وقيل يُكَفّون.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المعاني اللغوية في سورة «الأحقاف»(*)

قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [الآية ٩] والبِدْع: البديع وهو: الأوّل.

وقال ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [الآية ١٢] بالنّصب لأنه خبر معرفة.

وقال سبحانه: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الآية ١٢]. بنصب اللسان والعربي لأنه ليس من صفة الكتاب، فانتصب على الحال أو على فعل مضمر، كأنّ السياق: «أعْنِي لِساناً عربيّاً» وقال بعضُهم: إن انتصابه على «مُصَدِّق» جعل الكتاب مصدِّق اللسان.

وقال: ﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ﴾ [الآية ٣٥] أي: ذاك بلاغٌ. وقال بعضهم: «إنّ البَلاغَ هُوَ القُرآنُ» وإنّما يوعظ بالقرآن. ثم قال ﴿بَلَاغٌ﴾ أي: هو بلاغ.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [الآية ٣٣] فهو بالباء كالباء في قوله عزّ وجلّ ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ﴾[1] وهي مثل ﴿تَنبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ [المؤمنون/ ٢٠].

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) ورد هذا التعبير القرآني في سبعة عشر موضعاً من الكتاب الكريم، أوّلها سورة النساء، الآية ٤٦ وآخرها سورة الفتح، الآية ٢٨.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

لكل سؤال جواب في سورة «الأحقاف»(*)

لِمَ يقول تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ [الآية ١٦]، مع أن حُسْنَ ما عملوا يُتقبَل عنهم أيضاً؟

قلنا: أَحْسَنَ بمعنى حُسْنَ، وقد سبق نظيره في سورة الروم.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى في وصف الفريقين ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ [الآية ١٩] مع أن أهل النار لهم دَرَكات لا دَرَجات؟

قلنا: الدّرجات الطبقات من المراتب مطلقاً من غير اختصاص. الثاني أن فيه إضماراً تقديره: ولكل فريق درجات أو دركات مما عملوا، إلا أنه حُذف اختصاراً لدلالة المذكور عليه.

فإن قيل: كيف طابق الجواب السؤال في قوله تعالى ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٢٢ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾؟

قلنا: طابقه من حيث إن قولهم ذلك استعجال للعذاب الذي تَوَعَّدهم به، بدليل قوله تعالى بعده: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ [الآية ٢٤] فقال لهم لا علم لي بوقت تعذيبكم، بل الله تعالى هو العالم به وحده.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى في وصف الريح: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الآية ٢٥] وكم من شيء لم تدمّره؟

قلنا: معناه تدمّر كلّ شيء مرّت به

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرخ.

من أموال قوم عادٍ وأملاكهم.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [الآية ٣١] ولم يقل يغفر لكم ذنوبكم؟

قلنا: لأنّ من الذنوب ما لا يغفر بالإيمان كمظالم العباد ونحوها.



المعاني المجازية في سورة «الأحقاف»[*]

في قوله تعالى: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤﴾. استعارة على أحد التأويلات. وهو أن يكون معنى: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أي شيء يستخرج من العلم بالكشف والبحث، والطّلب والفَحص، فتثور حقيقته، وتظهر خبيئته، كما تُستثار الأرض بالمحافر، فيخرجُ نباتُها، وتظهر نثائلها[1]. أو كما يُستَثَار القنيص من مجاثمه، ويُستطلع من مكامنه.

وسائر التأويلات في الآية تُخرج الكلام عن حيّز الاستعارة. مثل تأوّلهم ذلك على معنى خاصّة[2] مِنْ عِلْم. أي بقيّة من علم، وما يجري هذا المجرى.

وأنشد أبو عبيدة للراعي[3] في صفة ناقة:

وذات أثارة أكلت عليها ... نباتاً في أكِمَّتِهِ قِفارا

أي ذات بقيّة من شحم رعت عليها

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

(1) النثائل: جمع نَثيلة ونُثالة، وهي التراب المستخرج من الحفر.

(2) الخاصة: البقيّة من الشيء.

(3) هو الراعي النميري حصين بن معاوية. ولقب بهذا اللقب لأنه كان يصف راعي الإبل في شعره، وكان معاصراً للشاعر جرير في العصر الأموي، ودخل معه في مهاجاة لأنه اتهمه بالميل الى الفرزدق. والبيت في «مقاييس اللغة» لأحمد بن فارس ج ـ ١ ص٥٦ بتحقيق الأستاذ عبد السلام محمد هارون. وقد ورد في المقاييس هكذا:

وذات أثارة أكلت عليها ... نباتاً في أكِمَّتِه تُؤاما

هذا النبات المذكور. وقوله قفاراً أي خالياً من الناس، ليس به راعية غيرها، فهو أهنأ لها، وأرفق بها.

وقال صاحب «الغريب المصنف»[1]: يقال سَمِنَتْ الناقةُ على أثارةٍ، أي على سِمَنٍ متقدّم قد كان قبل ذلك.



(١) هو أبو عبيد القاسم بن سلام، اشتغل بالحديث والفقه واللغة والأدب، وهو صاحب كتاب «غريب الحديث» وكتاب «غريب المصنف» المشار إليه هنا بالتعريف. وقد اشتغل في تأليفه أربعين عاماً وتوفي سنة ٢٢٣هـ. وأخباره في «وفيات الأعيان» و«الفهرست» و«طبقات الأدباء» و«تاريخ آداب اللغة العربية»؛ وهناك «الغريب المصنف» أيضا لأبي عمرو إسحاق بن مرار الشيباني، كما في «كشف الظنون» والمقصود هنا كتاب أبي عبيد، كما في «المجازات النبوية» للمؤلف.

سورة محمّد (ص)

٤٧


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

أهداف سورة «محمّد» (ص)(*)

هي سورة مدنية، نزلت بعد سورة «الحديد» ولها اسمان: سورة «محمد» (ص)، وسورة «القتال».

والقتال عنصر بارز في السورة، بل هو موضوعها الرئيس، فقد نزلت بعد غزوة بدر وقبل غزوة الأحزاب، أي في الفترة الأولى من حياة المسلمين بالمدينة، حيث كان المؤمنون يتعرّضون لِعَنَت المشركين، وكيد المنافقين، ودسائس اليهود.

يمكن أن نقسم سورة «محمد» (ص) الى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: يحرّض على قتال المشركين ويحثّ عليه، ويشمل الآيات [١ ـ ١٥].

القسم الثاني: يفضح المنافقين ويكشف نفاقهم، ويشمل الآيات [١٦ ـ ٣٠]

القسم الثالث: يدعو المسلمين الى مواصلة الجهاد بالنفس والمال، ويشمل الآيات [٣١ ـ ٣٨].

١ ـ التحريض على قتال المشركين

تبدأ السورة بالهجوم على المشركين، وتُبيِّن هلاكَهم وضياعَهم وضلالَهم. لقد سلب الله عنهم الهدى والتوفيق، فاتّبعوا الباطل وانحرفوا الى الضلال. أمّا المؤمنون، فقد آمنوا بالله ورسوله، فكَفَّر الله ذنوبهم ورزقهم صلاحَ البال وهدوء النفس ونعمةَ الرّضا واليقين.

(*) انتُقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

وشتان ما بين مؤمن راسخ الإيمان، صادق اليقين، معتمد على ربّ كريم حليم؛ وبين كافر ضالٍّ يبيع الحق، ويشتري الباطل، ويُفرِّط في الإيمان والهدى، ويتبع الشرك والضلال.

ثم تحثُّ السورة المسلمين على قتال المشركين، وقطع شوكتهم وهدم جبروتهم، وإزالة قوّتهم من طريق المسلمين: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ وهذا الضرب بعد عرض الإسلام عليهم وإبائهم له، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾. والإثخان شدّة التقتيل حتّى تتحطّم قوّة العدوّ وتتهاوى، فلا تعود به قدرة على هجوم أو دفاع؛ وعندئذٍ يؤسر من استأسر ويُشَدّ وثاقُه، ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾، أي إمّا أن يطلق سراحهم بعد ذلك بلا مقابل، وإمّا أن يطلق سراحهم مقابل فدية من مال أو عمل، أو في نظير إطلاق سراح المسلمين المأسورين، ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ حتى تنتهي الحرب بين الإسلام وأعدائه المناوئين له.

ولو شاء الله لانتقم من المشركين وأهلكهم كما أهلك مَنْ سبقهم بالطوفان والصيحة والريح العقيم، ولكن الله أراد أن يختبر قوة المؤمنين وأن يجعلهم سبيلاً لإعزاز الدين وإهلاك الكافرين. والذين قُتِلوا في سبيل الله فلن يضيع أعمالهم فهم شهداء، عند الله يتمتّعون بجنات خالدة ونعيم مقيم، وأرواحهم في حواصلِ طيرٍ خُضر، تسبح حول الجنة، وتأكل من ثمارها، وتقيم في ألوان النعيم. وقد وعد الله الشهداء بحسن المثوبة والكرامة والهداية وصلاح البال ودخول الجنة، لأنهم نصروا دين الله فسينصرهم الله ويثبّت أقدامهم، كما توَعَّد الكافرين بالتعاسة والضلال والهلاك جزاء كفرهم وعنادهم.

وتسوق السورة ألواناً من التهديد للمشركين، فتأمرهم أن يسيروا في الأرض فينظروا ماذا أصاب المكذِّبين من الهلاك والدمار. ثم تمضي السورة في ألوانٍ من الحديث حول الكفر والإيمان؛ فتصف المؤمنين بأنهم في ولاية الله ورعايته، والكفّار بأنهم محرومون من هذه الولاية.

وتُفَرِّقُ السورة بين متاع المؤمنين بالطيبات، وتمتّع الكافرين بلذائذ الأرض، كالحيوانات: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن

﴿تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾.

ان الفارق الرئيس بين الانسان والحيوان: أن للانسان إرادةً وهدفاً، وتصوّراً خاصّاً للحياة يقوم على أصولها الصحيحة المتلقّاة من الله خالق الحياة. فاذا فقد الإنسان هذا التصوّر، فَقَدَ أهم الخصائص المميّزة لجنسه، وأهم المزايا التي من أجلها كرّمه الله جلّ جلاله.

ثم تمضي السورة في سلسلة من الموازنات بين المؤمن المتيقّن، والكافر الذي اتّبع هواه وشيطانه، وزُيّن له سوء العمل: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾.

كما تصف الآيات متاع المؤمنين في الجنّة بشتّى الأشربة الشهيّة، من ماءٍ غير آسن، ولبن لم يتغيّر طعمه، وخمر لذة للشّارِبين، وعسلٍ مصفّى، في وفر وفيض، في صورة أنهار جارية. ذلك مع شتى الثمرات ومع المغفرة والرّضوان؛ ثم سؤال: هل هؤلاء المتمتعون بالجنة والرّضوان ﴿كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾؟

٢ ـ خصال المنافقين

تشمل الآيات [١٦ ـ ٣٠] المقطع الثاني من هذه السورة، وفيها حديث عن المنافقين وصفاتهم، وحركة النفاق حركة مدنيّة لم يكن لها وجود في مكة نظراً لضعف المسلمين فيها وتفوّق أعدائهم. فلما هاجر المسلمون الى المدينة وبدأ شأن الإسلام في الظهور والاستعلاء، بدأت حركة النفاق في الظهور والنموّ، وساعدها على الظهور وجود اليهود في المدينة، بما لهم من قوة ماديّة وفكريّة، وبما يضمرونه للدّين الجديد من كراهية. وسرعان ما اجتمع اليهود مع المنافقين على هدف واحد، ودبّروا أمرهم بليل، فأخذ المنافقون في حَبْك المؤامرات ودسّ الدسائس في كلّ مناسبة تَعْرِض، فإن كان المسلمون في شِدّةٍ ظهروا بعدائهم وجهروا ببغضائهم؛ واذا كانوا في رخاء ظلّت الدسائس سريّة، والمكايد في الظلام؛ وكانوا، الى منتصف العهد المدني، يُشكّلون خطراً حقيقيّاً على الإسلام والمسلمين. وقد تواتر ذكر المنافقين ووصف دسائسهم، والتنديد بمؤامراتهم وأخلاقهم في السور المدنية؛ كما تكرّر ذكر اتصالهم

باليهود، وتلقّيهم عنهم، واشتراكهم معهم في بعض المؤامرات المحبوكة.

والحديث عن المنافقين في سورة «محمد» (ص) يحمل فكرة السورة ويصوّر شدّتها في مواجهة المشركين والمنافقين. بل إن المنافقين هم فرع من الكافرين، أظهروا الملاينة وأبطنوا الكفر والخداع؛ أوْ هُمْ فَرْعٌ من اليهود يعمل بأمرهم، وينفّذ كيدهم ومكرهم. فمن هؤلاء المنافقين من يستمع الى النبي (ص) بأذنه ويغيب عنه بوعيه وقلبه. فإذا خرج من مجلس النبي (ص) تظاهر بالحرص على الدين، فسأل الصحابة عما قاله النبي (ص) سؤال سخرية واستهزاء، أو سؤال تظاهر ورياء.

أولئك المنافقون قد طمس الله سبحانه على أفئدتهم فلا تفقه، وقد اتّبعوا أهواءهم، فقادهم الهوى الى الهلاك.

أمّا المتقون المهتدون، فيزيدهم الله هدًى ويمنحهم التقوى والرشاد، ثم يتهدّد القرآن المنافقين بالساعة، فاذا جاءت، فلا يملكون الهداية ولا تنفعهم الندامة:

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾.

ثم تصوّر الآيات جُبْن المنافقين وهلعهم وتهافتهم إذا وُوجِهُوا بالقرآن يكلّفهم القتال، فهم يتظاهرون بالإيمان، فاذا أُنزلت سورةٌ مُحْكَمَةٌ لا تَشابُهَ فيها، وذُكَرَتِ الجهاد، رأيت المنافقين ينظرون إليك يا محمد نظْرَةَ مَنْ هو في النَّزْع الأخير؛ تشخص أبصارهم؛ لذلك كانوا جديرين بأن يهدّدهم الله جل جلاله بالويل والهلاك.

وتحثّهم الآيات على الطاعة والصدق والثبات: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾.

وبذلك يفتح القرآن الباب لمن يريد الطهارة الحسية والنفسية من المنافقين ومن المخاطبين جميعهم؛ ثمّ يحثّهم عزّ وجلّ على تدبّر القرآن وتأمّله، لأن ذلك يحرّك المشاعر، ويستجيش القلوب، ويخلّص الضمير.

وتمضي الآيات في تصوير حال المنافقين، وبيان سبب تولّيهم عن الإيمان بعد أن شارفوه، فتبيّن أنه تآمرهم مع اليهود، ووعْدُهم لهم

بالطاعة فيما يدبّرون.

لقد كره اليهود الاسلام وتألّبوا عليه، فلمّا هاجر النبيّ (ص) الى المدينة شنّوا عليه حرب الدّسّ والمكر والكيد، وانضمّ المنافقون لليهود يقولون لهم سراً، كما ورد في التنزيل: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦)﴾.

ثم يتهدّد القرآن المنافقين، بملائكة العذاب لأنهم تركوا طريق الإسلام، وانضمّوا إلى دسائس الحاقدين عليه.

وفي نهاية المقطع يتهدّدهم جلّ جلاله بكشف أمرهم لرسول الله (ص) وللمسلمين الذين يعيشون بينهم متخفّين؛ قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠)﴾.

٣ ـ حديث عن المشركين والمؤمنين

المقطع الأخير من السورة يشمل الآيات [٣٢ ـ ٣٨]، ويبيّن في بدايته أنّ المشركين منعوا الناس من الإيمان بالله تعالى، وأعلنوا الشقاق والعداوة لرسول الله (ص)، وهؤلاء لن يضرّوا الله بكفرهم، وسيحبط الله أعمالهم.

وتتجه الآيات الى المؤمنين فتأمرهم بطاعة الله وطاعة الرسول، وتأمرهم بالثبات على الحق حتى يأتي نصر الله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣)﴾.

وهذا التوجيه يوحي بأنّه كان في الجماعة المسلمة يومئذ من لا يُظهر الطاعة الكاملة، أو من تَثْقُلُ عليه بعض التكاليف، وتَشُقُّ عليه بعض التضحيات التي يقتضيها جهاد هذه الطوائف القوية المختلفة التي تقف للإسلام، تناوشه من كل جانب، والتي تربطها بالمسلمين مصالح ووشائج قربى، يَصْعُب فَصْمها والتخلي عنها نهائياً، كما تقتضي العقيدة ذلك.

ولقد كان وقع هذا التوجيه عنيفاً عميقاً في نفوس المسلمين الصادقين، فارتعشت له قلوبهم، وخافوا أن يقع منهم ما يُبْطِل أعمالهم ويَذْهَب بحسناتهم.

وتستمر الآيات في خطاب المؤمنين، تدعوهم الى مواصلة الجهاد بالنفس والمال دونما تراخ أو دعوة الى مهادنة الكافر المعتدي الظالم، تحت

أيّ مؤثّر من ضعف أو مراعاة قرابة أو رعاية مصلحة، ودونما بخل بالمال الذي لا يكلّفهم الله أن ينفقوا منه إلا في حدود مستطاعة، مراعياً الشّحَ الفطريّ في النفوس. وإذا لم ينهضوا بتكاليف هذه الدعوة، فإنّ الله يَحرِمهم كرامة حملها والانتداب لها، ويستبدل بهم قوماً غيرهم ينهضون بتكاليفها، ويعرفون قدرها، وهو تهديد عنيف مخيف يناسب جوّ السورة، كما يشي بأنه كان علاجاً لحالات نفسية قائمة في صفوف المسلمين إذ ذاك، من غير المنافقين؛ وذلك الى جانب حالات التفاني والتجرد والشجاعة والفداء التي اشتهرت بها الروايات، فقد كان في الجماعة المسلمة هؤلاء وهؤلاء. وكان القرآن يعالج ويربّي لينهض بالمتخلفين الى المستوى العالي الكريم.

مقصود السورة اجمالاً

قال الفيروزآبادي: معظم مقصود سورة «محمد» (ص): «الشكاية من الكفّار في إعراضهم عن الحق، وذكر آداب الحرب والأسرى وحكمهم، والأمر بالنصرة والإيمان، وابتلاء الكفّار في العذاب، وذكر أنهار الجنة: من ماءٍ ولبنٍ وخمرٍ وعسلٍ؛ وذكر طعام الكفار وشرابهم؛ وظهور علامة القيامة؛ والشكاية من المنافقين؛ وتفصيل ذميمات خصالهم؛ وأمر المؤمنين بالطاعة والإحسان؛ وذم البخلاء في الإنفاق؛ وبيان استغناء الحق تعالى وفقر الخلق، في قوله جلّ وعلا ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [الآية ٣٨].

المبحث الثاني

ترابط الآيات في سورة «محمّد» (ص)(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة «محمد» (ص) بعد سورة «الحديد»، ونزلت سورة «الحديد» بعد سورة «الزّلزلة»، ونزلت سورة «الزلزلة» بعد سورة «النساء»، وكان نزول سورة «النساء» بين صلح الحُديْبِيَة وغزوة تَبُوك، فيكون نزول سورة «محمد» (ص) في هذا التاريخ أيضاً.

وقد سُمّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى في الآية ٢ منها ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾، وتبلغ آياتها ثمانياً وثلاثين آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السورة تحريض المؤمنين على قتال الكافرين ووعدهم بالنصر عليهم، وهذا القتال هو عذاب الدنيا الذي أوعِدَ الكفار به في السور السابقة؛ ولهذا جاء ترتيبها في الذكر بعدها، لتدلّ على صدق ما أوعدهم الله به.

التحريض على القتال
الآيات [١ ـ ٣٨]

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ①﴾ فمهّد عزّ وجلّ للتحريض على القتال ببيان وجه استحقاق الكفّار له، وذكر أنّهم كفروا

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجمايز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

وصدّوا عن سبيله فأضلّ أعمالهم، وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد (ص) غفر ما كان من شركهم وأصْلَحَ بالَهُم، لأنّ الكفار اتّبعوا الباطل والمؤمنين اتّبعوا الحق مِنْ ربِّهم؛ ثم أمر جلّ وعلا بقتال الكفّار حتّى يثخنوهم بالقتل والجراح، فإذا أثخنوهم شدّوا وَثاقهم بالأسر، وهم مخيَّرون بعد هذا في إطلاقهم بفداءٍ أو من غير فداء؛ ثم وعد الذين يُقْتَلُون منهم في سبيله حُسْنَ الأجر في الآخرة، والذين يبقون منهم بالنصر على أعدائهم؛ وأوعد الكفّار بالهزيمة والهلاك وضياع الأعمال، ثم مضى السياق في هذا الترغيب والترهيب إلى أن انتقل منه إلى الحديث عن المنافقين فألحقهم بأولئك الكفّار، وذكر أنّ الله سبحانه طبع على قلوبهم فاتّبعوا أهواءهم ولم يجاوز إسلامهم حناجرهم، وأن الذين أخلصوا في إيمانهم زادهم الله هُدًى الى هداهم، وأن هؤلاء المنافقين لا يتوقع منهم الإيمان إلاّ أن تأتيهم الساعة بغتة، وها هي ذي قد قَرُبَتْ وجاءت علاماتُها، ولكنّ التوبة عندها لا تنفع صاحبها. ثم ذكر السياق، أن الله عزّ وجلّ أمر النبي (ص) أن يستمر هو والمؤمنون على الإخلاص في توحيده، لأنه يعلم مُتَقَلَّبَهُمْ ومَثْواهُمْ، حتّى لا يكونوا كهؤلاء المنافقين في مخالفة باطنهم لظاهرهم.

ثم أخذ السياق في ذم هؤلاء المنافقين على تقاعسهم عن القتال في سبيل الله جبناً وخوفاً، وذكر أنهم إن تولّوا عن القتال في سبيله سبحانه فإنهم يعودون إلى ما كانوا عليه من الفساد في الأرض، فَيُغِير بعضُهم على بعض، ويقابل ذَوُو الأرحام بعضهم بعضاً، كما كان بين الأوْس والخَزْرَج؛ ثم ذكر تعالى أنّه أصمّهم وأعماهم فلا يتدبّرون ذلك، بل يتّبعون ما يسوِّله الشيطان لهم، وما وَعَدُوا به أهل مكة من الكفّ عن قتالهم؛ ثم توعّدهم جل جلاله، بقوله ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾ [الآية ٣٠].

ثم ختمت السورة بمثل ما بدئت به من التحريض على القتال، فذكر تعالى أنه سيبلوهم به ليعلم المجاهدين والصابرين منهم، ووعدهم بأنه لن يمكّن أعداءهم من أن يضروهم؛ ثمّ نهاهم أن يَهِنُوا في القتال ويدعوا إلى السَّلْم وهم الأعْلَوْن، وقد وعدهم

بالنصر وحسن الأجر؛ وهوّن عليهم أمر الدنيا التي يعوق حبُها عن القتال والإنفاق في سبيله سبحانه، إلى أن قال: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم (٣٨)﴾.




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المبحث الثالث

أسرار ترتيب سورة «محمّد» (ص)(*)

لا يخفى وجه ارتباط أوّلها بقوله تعالى في آخر الأحقاف:

﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

واتصال هذا القول وتلاحمه، بحيث إنه لو أسقطت البسملة منه، لكان متّصلاً اتّصالاً واحداً لا تَنافُرَ فيه، كالآية الواحدة، آخذاً بعضه بعنق بعض[1].

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(١) أول سورة «محمّد» (ص): ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾﴾ وسورة «القتال» مع هذا متمّمة لموضوع سورة «الأحقاف» قبلها: فـ «الاحقاف» فيها الحديث عن إعراض الكافرين في مختلف العصور، وفيها دعوتهم الى الإيمان بالتي هي أحسن؛ وقد استنفدت السورة وسائل الإقناع العقلي، وأثبتت عتوّ أهل الكفر وجحودهم؛ فكانت سورة «القتال» بما فيها من جهاد، وقواعد الحرب، وتشريعاته متّفقة تماماً مع نسخ وسائل الدعوة السلمية، بآية السيف.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المبحث الرابع

مكنونات سورة «محمّد» (ص)[*]

١ ـ ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ۝٣٨﴾ [الآية ٣٨].

أخرج ابنُ أبي حاتِم عن أبي هريرة أنَّ رسولَ الله (ص) تلا هذه الآية: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ۝٣٨﴾. فقالوا: يا رسول الله مَن هؤلاء؟ فضرب بيده على كتف سَلْمان الفارسي، ثم قال: «هذا وقَوْمُهُ، ولو كان الدِّين عند الثريّا لتناوله الرجال من الفرس»[1].

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِماتِ الأقران في مُبْهَمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) أخرج البخاري في «صحيحه» (٤٨٩٧) في التفسير عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كنا جلوساً عند النبي (ص) فأنزلت عليه سورة الجمعة ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ [الجمعة/٣] قال: قلت: من هم يا رسول الله؟ فلم يراجعْهُ حتى سأل ثلاثاً ـ وفينا سَلْمان الفارسي (رض)، وضعَ رسولُ الله (ص) يده على سلمان ـ ثم قال: لو كان الإيمان عند الثريا لنالَهُ رجالٌ ـ أو رجلٌ ـ من هؤلاء».

وفي رواية لمسلم: «لو كان الدين عند الثريا لذهب رجال من أبناء فارس حتى يتناولوه».

وقد أطنب أبو نُعيم في أول «تاريخ أصبهان» في تخريج طرق هذا الحديث.

لغة التنزيل في سورة «محمّد» (ص)(*)

١ ـ وقال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾، ومَدَّ لهم في الآمال والأماني، يعني أن الشيطان يُغويهم.

وقُرِئ: (وأُمْلِيَ لهم) على البناء للمفعول، أي: أُمهِلوا ومُدَّ في عمرهم.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾. أي: في نحوه وأسلوبه، وقيل: واللّحن أن تُميل الكلام إلى نَحْوٍ من الأنحاء ليفطن له صاحبك، كالتعريض والتورية، كقول الشاعر:

ولقد لَحَنْتُ لكم لكيما تفقهوا
واللَّحنُ يعرفُه ذوو الألبابِ

٣ ـ وقال تعالى: ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾.

وهو من وَتَرْتُ الرجل إذا قتلت له قتيلاً من ولدٍ أو أخٍ أو حميم. وحقيقته: أفردتهُ من قريبه أو ماله، من الوِتْر وهو الفَرْد، فشبّه إضاعة عمل العامل، وتعطيل ثوابه بوتر الواتر، وهو من فصيح الكلام.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المعاني اللغوية في سورة «محمّد» (ص)(*)

قال تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ۝١٨﴾ [الآية ١٨] أي: فأنّى لهم ذكراهم إذا جاءتهم الساعة.

وقال سبحانه: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الآية ٢٢] فإنّ الأوّل للمجازاة، وأوقعت ﴿عَسَيْتُمْ﴾ على ﴿أَن تُفْسِدُوا﴾ لأنه اسم، ولا يكون أن تعمل فيه (عَسَيْتُم) ولا «عَسَيْتُ» إلاّ وفيه «أنْ» لا تقول «عَسَيْتُم الفِعْلَ» كما أنّ قولك «لو أنّ زيداً جاء كان خيراً له» فقولك[1] «أنَّ زَيْداً جاءَ» اسم، وأنت لا تقول: «لو ذاك» لأنه لا تقع الأسماء كلّها في كل موضع؛ ولا تقع الأفعال كلها على كل الأسماء، ألا ترى أنهم يقولون «يَدَعُ» ولا يقولون «وَدَعَ» ويقولون «يَذَرُ» ولا يقولون «وَذَرَ».

وقال تعالى: ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ۝٣٥﴾ أي: في أعمالِكم، كما تقول: «دَخَلْتُ البيت» وانت تريد «في البيت».

وقال تعالى: ﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ﴾ [الآية ٣٨] بجعل التنبيه في موضعين للتوكيد، وكان التنبيه الذي في «هَؤُلاَءِ» تنبيهاً لازماً.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) عبارة المؤلف غير منسقة. وكان ينبغي لها أن تكون: كما أن قولك «أنّ زيداً جاء» في قولك «لو أنّ زيداً جاء كان خيراً له» اسم.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

لكل سؤال جواب في سورة «محمّد» (ص)(*)

إن قيل: لِمَ قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ۝٣﴾ ولم يسبق ضَرْبُ مثل؟

قلنا: معناه كذلك يبيّن الله للناس أمثال حسنات المؤمنين وسيئات الكافرين، وقيل أراد به أنه جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفّار، واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين، أو أنه جعل الإضلال مثلاً لخيبة الكفّار، وتكفير السيئات مثلاً لفوز المؤمنين.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى في حق الشهداء بعد ما قتلوا في سبيل الله: ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ [الآية ٥] والهداية إنما تكون قبل الموت لا بعده؟

قلنا: معناه سيهديهم إلى مُحاجّةِ مُنْكَرٍ ونكيرٍ. وقيل سيهديهم يوم القيامة إلى طريق الجنة.

فإن قيل: ما معنى قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾ [الآية ١٥]. إلى قوله تعالى: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ﴾ [الآية ١٥]؟

قلنا: قال الفَرّاء: معناه أمَنْ كان في هذا النعيم كمَنْ هو خالد في النار. وقال غيره تقديره: مثل الجنة الموصوفة كمثل جزاء من هو خالد في النار، فحذف منه ذلك إيجازاً واختصاراً.

فإن قيل: لِمَ قال تبارك وتعالى

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

للنبي (ص) ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴿١٩﴾﴾ [الآية ١٩] وهو عالم بذلك قبل أن يوحى إليه، وبعد الوحي؟

قلنا: معناه اثبُتْ على ذلك العلم، وقال الزّجّاج: الخطاب له (ص)، والمراد أمّته كما ذكرنا في أوّل سورة الأحزاب.



المعاني المجازية في سورة «محمّد» (ص)(*)

١ ـ في قوله سبحانه: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [الآية ٤] استعارة. والمراد بالأوزار هٰهنا الأثقال، وهي آلة الحرب وعَتادها من الدروع والمَغافِر والرّماح والمَناصِل وما يجري هذا المجرى: لأنّ جميع ذلك ثقلٌ على حامله، وشاقٌ على مستعمله. وعلى هذا قول الأعشى:

وأعددت للحرب أوزارها
رماحاً طوالاً وخيلاً ذكورا
ومن نسج داوود موضونة[1]
تُساق مع الحيّ عِيراً فَعِيرا

والمراد بذلك في الظاهر الحرب؛ وفي المعنى أهل الحرب، لأنهم الذين يصح وصفهم بحمل الأثقال ووضعها، ولبس الأسلحة ونزعها.

٢ ـ وفي قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۝٢١﴾ استعارة: لأن العزم لا يوصف بحقيقته إلاّ الانسان المميّز الذي يوطّن النفس على فعل الأمر قبل وقته عقداً بالمشيئة على فعله، فيصحّ أن يسمّى عازماً عليه، وإنما قال تعالى: ﴿عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ مجازاً أي قويت العزائم على فعله، فصار كالعازم في نفسه. وقال بعضهم معنى عزم الأمر أي جدّ الأمر، ومنه قول النابغة الذّبياني:

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) من وَضَنَ: الدرع المقاربة النسج، أو المنسوجة بالجواهر.

حـبُّـاك ودٌ فـإنـا لا يـحـلُّ لـنـا
لـهـوُ الـنـسـاءِ لأنَّ الـذيـن قـد عـزمـا

أي استحكم وجَدَّ وقَوِيَ واشتدَّ.

٣ ـ وفي قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ۝٢٤﴾ استعارة. والمراد أن قلوبهم كالأبواب المقفلة لا تنفتح لوعظ واعظ، ولا يلج فيها عذل عاذل. وفي لغة العرب أن يقول القائل، إذا وصف نفسه بضيق الصدر وتشعّب الفكر: قلبي مقفل، وصدري ضيّق. وإذا وصف غيره بضدّ هذه الصفات، قال: انفتح قلبُهُ وانفسح صدرُهُ؛ وقد يجوز أن يكون المعنى أنّ أسماعهم لا تعي قولاً ولا تسمع عذلاً؛ وإنما شُبِّهَت الأسماع بالأقفال على القلوب لأنها أبوابٌ عليها. فإذا عرضت على الأسماع كانت كالأقفال الموثقة والأبواب المغلقة.

٤ ـ وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ۝٣٥﴾، استعارة: ومعناها مأخوذ من الوِتْر، وهو ما يُنقصه الإنسان من مالٍ أو دم وما أشبههما ظُلْماً، فيكسبه ذلك عداوةً لفاعله وإرصاداً بالمكروه لمستعمليه، فكأنّه تعالى قال: «ولن ينقصكم ثواب أعمالكم، أو لن يظلمكم في الجزاء على أعمالكم؛ فيكون بمنزلة من أودعكم تِرَةً وأطلبكم طائلةً». وقال الأخفش عن قوله تعالى ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ۝٣٥﴾: أي في اعمالكم، كما نقول دخلت البيت، والمراد دخلت في البيت.



سورة الفَتح

٤٨


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

أهداف سورة «الفتح»(*)

سورة «الفتح» سورة مدنية، نزلت في الطريق بين مكة والمدينة عند الانصراف من الحُدَيْبِيَة، وآياتها ٢٩ آية، نزلت بعد سورة الجمعة.

ونلمح، في بداية السورة، فضل الله تعالى على النبي (ص) وصحبه، وآثار نَعْمائه، جلّ وعلا، على المسلمين.

وقد سبقتها، في ترتيب المصحف، سورة «محمد» التي وَصفت ظلم المشركين والمنافقين، وحرّضت المسلمين على الجهاد، وحذرتهم من الخنوع والبعد عن طاعة الله.

وقد نزلت سورة «محمد» في الفترة الأولى من حياة المسلمين بالمدينة. أما سورة «الفتح»، فقد نزلت في العام السادس من الهجرة، وكان عُود المسلمين قد اشتد، وقوتهم قد زادت، وظهر أثر ذلك في بيعة الرضوان التي تمت تحت الشجرة على التضحية والفداء.

صلح الحديبية

رأى رسول الله (ص) في منامه ذات ليلة أنه دخل المسجد الحرام في أصحابه، آمنين مُحَلِّقين رؤوسَهم ومقصرين لا يخافون عدّواً، فاستبشر بذلك وأخبر أصحابه، فاستبشروا وفرحوا واستعدّوا لزيارة البيت الحرام مُعْتمِرين. «وفي ذي القَعْدة من السنة السادسة للهجرة، خرج النبي (ص) مُعْتمِراً لا يريد حرباً، واستنفر العرب ومَنْ حوله من أهل البوادي ليخرجوا

(*) انتقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

معه، وهو يخشى من قريش أن يَعْرِضوا له بحرب، أو يَصُدُّوه عن البيت. وتخلَّفَ كثير من الأعراب عن مرافقته ظناً أن الحرب لا بدّ واقعة بينه وبين قريش، فخرج رسول الله بمن معه من المهاجرين والأنصار، ومن لحق بهم من العرب، وساق معه الهَدْيَ سبعين بَدَنَة؛ وأحرم بالعُمْرَة ليأمن الناس من حربه، وليعلموا أنه إنّما خرج زائراً للبيت ومُعَظِّماً له».

واستخلف رسول الله على المدينة عبدالله بن أم مكتوم، وأخذ معه من نسائه أمّ سلمة، وسار معه ألف وخمسمئة من المسلمين معتمرين، وسيوفهم مُغْمدة في قُرُبِها، فلمّا أصبحوا على مسيرة مرحلتين من مكة لقي النبي (ص) بشر بن سفيان فأنبأه نبأ قريش قائلاً:

«يا رسول الله، هذه قريش علمت بمسيرك فخرجوا عازمين على طول الإقامة وقد نزلوا بذي طُوى يحلفون بالله لا تدخلها عليهم أبداً».

فقال رسول الله (ص): «يا ويح قريش، قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلّوْا بيني وبين سائر الناس، فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله دخلوا في الإسلام وافرين؟ والله لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله به، حتى يُظْهِرَه الله أو تَنفردَ مني هذه السالفة».

وكان النبي (ص) حريصاً على أن يتجنب الحرب مع قريش لأنه خرج متنسكاً معظماً للبيت لا للحرب.

وأرسلت قريش مندوبين عنها فأعلمهم النبي أنه لم يأتِ محارباً، وإنما جاء معتمراً معظماً للبيت.

وأرسل النبي (ص) عثمان بن عفان الى أهل مكة ليخبرهم بمقْصَد المسلمين فقال لهم: إنّا لم نأتِ لقتل أحد، وإنّا جئنا زُوّاراً لهذا البيت، معظّمين لحرمته. ولا نريد إلاّ العمرة، فأبت قريش أن يدخل النبي وصَحْبُه مكة، وأذِنت قريش لعثمان أن يطوف بالبيت فقال: «لا أطوف ورسول الله ممنوع»، فاحتبست قريش عثمان، فشاع عند المسلمين أن عثمان قد قُتل، فقال (ص) حينما سمع ذلك: «لا نبرح حتّى تناجزهم الحرب».

بيعة الرضوان

دعا النبي الناس للبيعة على القتال فبايعوه على الموت، تحت شجرة

هناك سميت «شجرة الرّضوان». وقد بارك الله هذه البيعة، وأعلن رضاه عن أهلها فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الآية ١٨].

شروط الصلح

علمت قريش بخبر هذه البيعة، فاشتدّ خوفها، وقويت رغبتها في الصلح، وأرسلت سهيل بن عمرو ليفاوض المسلمين بشأن الصلح، وتوصل الطرفان الى معاهدة مشتركة سميت بصلح الحديبية؛ وأهم شروط هذا الصلح ما يأتي:

١ ـ وضع الحرب بين المسلمين وقريش عشر سنين.

٢ ـ من جاء الى محمد من قريش بغير إذن وَلِيِّه ردّه عليهم، ومن جاء قريشاً من المسلمين لا يُلْزَمُونَ بردّه.

٣ ـ من أراد أن يدخل في حلف محمد دخل فيه، ومن أراد أن يدخل في حلف قريش دخل فيه.

٤ ـ أن يرجع النبي من غير عمرة هذا العام، ثم يأتي في العام المقبل فيدخل مكة بأصحابه، ويقيموا بها ثلاثة أيام، ليس معهم من السلاح إلاّ السيف في القِراب.

وقد كان هذا الصلح مثار اعتراض من بعض كبار المسلمين، لأنهم جاءوا للطواف بالبيت فمُنعوا من ذلك، وهم في حال قوة واستعداد لمحاربة قريش. كما أنّ شروط الصلح أثارت غضب المسلمين، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، ألست برسول الله؟ فقال بلى، قال عمر: ألسنا على الحق وعَدُوُّنا على الباطل؟ قال: بلى، قال فعلامَ نعطي الدَّنِيّةَ في ديننا إذن؟ فقال رسول الله (ص): «أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيّعني».

ولكن أبا بكر كان أكثر الناس وثوقاً بما اختاره النبي، وبأن الحكمة والخيرة في اختياره.

ثم وقَّع الطرفان على الصلح. وبعد ذلك توافدت قبيلة خزاعة فدخلت في عهد رسول الله؛ وتوافدت قبيلة بكر فدخلت في حِلْف قريش. وقد كان لهذا الصلح أكبر الأثر في سير الدعوة الإسلامية. فقد اعترفت قريش بالمسلمين، كما سمحت لهم بدخول مكة في العام القادم. ولما دخلوا مكة، شاهدهم أهلها، وسمعوا لقولهم، ورأوا عبادتهم، فتفتّحت قلوبهم

للإسلام، وقد فُتحت مكة بعد عمرة القضاء بسنة واحدة. اذ كان صلح الحديبية سنة ٦ هـ وعمرة القضاء سنة ٧ هـ، وفَتْحُ مكة سنة ٨ هـ. كما أن هذا الصلح بَشّر للمسلمين نشر الدعوة، وشَرْح الفكرة، ودعوة الناس الى الإسلام، ومكاتبة الرسل والملوك.

الأحداث وسورة «الفتح»

نزلت سورة «الفتح» في أعقاب صلح الحديبية، فباركت السورة هذا الصلح وجعلته فتحاً مبيناً؛ وبشرت النبي (ص) بالمغفرة والنصر وإتمام النعمة. وقد فرح النبي الكريم بهذه السورة فرحاً شديداً (انظر الآيات ١ ـ ٣). واشتملت السورة على بيان فضل الله سبحانه على المسلمين حين أنزل السكينة والأمان والرضا في قلوبهم، كما اعترفت السورة للمؤمنين بزيادة الإيمان ورسوخه، وبشّرتهم بالمغفرة والثواب.

وتوعّدت السورة المنافقين والكفار بالعذاب والنكال (انظر الآيات ٤ ـ ٦). ثم نوّهت ببيعة الرضوان واعتبارها بيعة الله، وربط قلوب المؤمنين مباشرة بربهم من هذا الطريق بهذا الرباط المتصل مباشرة بالله الحي الباقي الذي لا يموت [الآية ١٠].

وبمناسبة البيعة والنكث، التفت السياق الى الأعراب الذين تخلّفوا عن الخروج، ليفضح معاذيرهم، ويكشف ما جال في خاطرهم من سوء الظن بالله، ومن توقع السوء للرسول ومن معه، والتفت السياق، أيضاً، إلى توجيه الله تعالى الرسول (ص) الى ما ينبغي أن يكون موقفه منهم في المستقبل، وذلك بأسلوب يوحي بقوة المسلمين وضعف المخلّفِين كما يوحي بأن هناك غنائم وفتوحاً قريبة يسيل لها لعاب المخلّفِين المتباطئين [انظر الآيات ١١ ـ ١٧].

الله يبارك بيعة الرضوان

كان الربع الثاني من سورة الفتح تمجيداً لهؤلاء الصفوة من الرجال، وتسجيلاً لرضوان الله عليهم حين بايعوا رسول الله (ص) تحت الشجرة، والله عز وجل حاضِرُ هذه البيعة وشاهدُها وموثقها، ويده فوق أيديهم فيها، تلك المجموعة التي حظيت بتلك اللحظة القدسية وذلك التبليغ الالهي: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ

﴿تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾.

تلك المجموعة التي سمعت رسول الله (ص) يقول لها عند البيعة. «أنتم اليوم خير أهل الأرض».

تبدأ الآيات [١٨ ـ ٢٩] بحديث من الله سبحانه وتعالى الى رسول الله (ص) عن هؤلاء الصّفوة الذين بايعوا تحت الشجرة، ثم بحديث مع هؤلاء الصفوة يبشّرهم بما أعَدّ لهم من مغانم كثيرة وفتوح، وبما أحاطهم به من رعاية وحماية في هذه الرحلة وفيما سيتلوها، ويندد بأعدائهم الذين كفروا تنديداً شديداً، ويكشف لهم عن حكمته في اختيار الصلح والمهادنة في هذا العام، ويؤكد لهم صدق الرؤيا التي رآها رسول الله (ص) عن دخول المسجد الحرام، وأن المسلمين سيدخلونه آمنين لا يخافون، وأن دينه سيظهر على الدين كله في الأرض بأسرها.

ظهور الاسلام

لقد صدقت رؤيا رسول الله (ص)، وتحقّق وعد الله للمسلمين بدخول المسجد الحرام آمنين، ثم كان الفتح في العام الذي يليه، وظهر دين الله في مكة، ثم ظهر في الجزيرة كلها بعد ذلك، ثم تحقق وعد الله وبشراه الأخيرة حيث يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾. فلقد ظهر دين الحق، لا في الجزيرة وحدها، بل ظهر في المعمور من الأرض كلها، قبل مضي نصف قرن من الزمان. ظهر في إمبراطورية كسرى كلها، وفي قسم كبير من إمبراطورية قيصر، وظهر في الهند وفي الصين، ثم في جنوب آسيا في الملايو وغيرها، وفي جزر الهند الشرقية (أندونيسيا)... وكان هذا هو معظم المعمور من الارض في القرن السادس ومنتصف القرن السابع الميلادي.

وما يزال دين الحق ظاهراً على الدين كله، حتى بعد انحساره السياسي عن جزء كبير من الأرض التي فتحها، وبخاصة في أوروبا وجزر البحر الابيض، وانحسار قوة أهله في الأرض كلها بالقياس الى القوى التي ظهرت في الشرق والغرب في هذا الزمان.

أجل، ما يزال دين الحق ظاهراً على الدين كله من حيث هو دين، فهو الدين القوي بذاته، القوي بطبيعته،

الزاحف بلا سيف ولا مدفع من أهله، لما في طبيعته من استقامة مع الفطرة، ومع نواميس الوجود الاصلية، ولما فيه من تلبية بسيطة عميقة لحاجات العقل والروح، وحاجات العمران والتقدم، وحاجات البيئات المتنوعة من ساكني الاكواخ الى ناطحات السحاب؛ وما من صاحب دين غير الاسلام، ينظر في الاسلام نظرة مجرّدة من التعصب والهوى من غير أن يقر باستقامة هذا الدين وقوته الكامنة، وقدرته على قيادة البشرية قيادة رشيدة، وتلبية حاجاتها النامية المتطورة في يسر واستقامة.

وصف الصحابة

في ختام سورة الفتح نجد صورة مشرقة للنبي الكريم وصحبه الأبرار، فهم أقوياء في الحق، أشداء على الكفار، رحماء بينهم؛ وهم في الباطن أقوياء في العقيدة، يملأ صدورهم اليقين؛ فتراهم رُكَّعاً سُجّداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً.

وقد ظهر نور الإيمان عليهم في سَمْتِهِم وسِحْنَتِهِم وسِماتِهِم. سيماهم في وجوههم من الوَضاءَةِ والإشراق والصفاء والشفافية. هذه الصورة الوضيئة ثابتة لهم في لوحة القدر، فقد وردت صفتهم في التوراة التي أنزلها الله سبحانه، على موسى (ع).

أما صفتهم في الانجيل فهي صورة زرع نام قوي، يخرج فروعه بجواره، وهذه الفروع تشدّ أَزْرَهُ، وتساعده حتى يصبح الزرع ضخماً مستقيماً قويّاً سويّاً، يبعث في النفوس البهجة والإعجاب.

قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾.

مقاصد السورة الاجمالية

قال الفيروزآبادي: معظم مقصود سورة «الفتح» ما يأتي:

«وعد الله الرسول (ص) بالفتح والغفران، وإنزال السكينة على أهل الايمان، وإيعاد المنافقين بعذاب

الجحيم؛ ووعد المؤمنين بنعيم الجنان، والثناء على سيّد المرسلين، وذكر العهد وبيعة الرضوان، وذكر ما للمنافقين من الخذلان، وبيان عذر المعذورين، والمِنّة على الصحابة بالنصر، وصدق رؤيا سيد المرسلين، وتمثيل حال النبي والصحابة بالزرع والزرّاع في البهجة والنضارة وحسن الشأن».

روى مسلم عن أنس عن ابن عبّاس رضيَ الله عنه، قال: «لما نزلت سورة «الفتح» قال رسول الله (ص) لقد أنزل عليّ سورة هي أحبّ إليّ من الدنيا وما فيها».




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المبحث الثاني

ترابط الآيات في سورة «الفتح»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة «الفتح» بعد سورة «الجمعة»، وكان نزولها في الطريق عند الانصراف من الحُدَيْبِيَةِ في السنة السادسة من الهجرة، فتكون من السور التي نزلت فيما بين صلح الحديبية وغزوة تَبُوك.

وقد سُمّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى في أولها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ وتبلغ آياتها تسعاً وعشرين آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السورة التنويه بشأن صلح الحدُيبية، لأنّ قريشاً سعت إليه بعد بيعة الرضوان، فظهر ضعفها وخضوعها بعد إبائها، وبدأ تخاذلها بعد بيعة المسلمين على الموت، وهذا كان فتحاً مبيناً للمسلمين، وتمهيداً لفتح مكة بعد ذلك في السنة الثامنة من الهجرة؛ وبهذا وفى الله بوعده بنصرهم في السورة السابقة.

التنويه بصلح الحديبية
الآيات [١ ـ ٢٩]

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ فجعل صلح الحديبية فتحاً مبيناً للنبي (ص)، وقيل إنه يقصد بذلك فتح مكة، لأن هذا الصلح كان تمهيداً لفتحها؛ ثم ذكر سبحانه أنه هو

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجمايز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين حينما أبت قريش عليهم أن يدخلوا مكة ليؤدُّوا عمرتهم، فلم يَهِنُوا أو لم يرتدّوا على أعقابهم، بل وقفوا ينتظرون ما يكون بعد تبادل الرسل بينهم وبين قريش، وقد وعدهم على هذا بما وعدهم، وأوعد المنافقين الذين تخلفوا عنهم وظنّوا أنهم لن يرجعوا إليهم، ثم مدح الذين بايعوا الرسول (ص) على الموت تحت شجرة الرّضوان حينما أشيع أن قريشاً قتلت عثمان بن عفان، وكان النبي (ص) قد أرسله إليها، وذكر أن الذين بايعوه على ذلك إنما بايعوه ويد الله فوق أيديهم، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بعهده فسيؤتيه أجراً عظيماً. ثم ذكر أن أولئك المتخلّفين من المنافقين سيعتذرون بأنهم اشتغلوا بأموالهم وأهليهم، وذكر أنهم كاذبون في اعتذارهم، وأوعدهم على ذلك بما أوعدهم، ثم ذكر جلّ وعلا أنهم سيطلبون من النبي (ص) بعد أن رأوا ظهور أمره أن ينطلقوا معه إلى القتال طمعاً في الغنائم، وأمره ألاّ يُمَكِّنَهمَ من الانطلاق معه، وأن يبيّن لهم أن القتال طمعاً في الغنائم ليس طريقاً لقبول توبتهم، وإنما طريق ذلك أنهم سيدعون إلى قتال قوم أولي بأس شديد ـ ولعلهم يهود خيبر ـ فإن يطيعوا أمر الله، سبحانه، في قتالهم يؤتهم أجراً حسناً، وإن يتولوا كما تولّوا من قبل يعذبهم عذاباً أليماً، واستثنى منهم صاحب العذر من الأعمى والأعرج والمريض، ثم عاد السّياق إلى أولئك الذين بايعوا تحت الشجرة فذكر أن الله جلّ جلاله رضي عنهم، وأنه سيثيبهم فتحاً قريباً هو فتح خيبر، وهذا إلى مغانم كثيرة يأخذونها بعدها، وقد عجّل لهم فتح خيبر بعد أن كفّ أيدي قريش عنهم بذلك الصلح، وهناك غنيمة أخرى لم يقدروا عليها هذه المدة وهي مكة، وقد أحاط بها بفتح ماحولها؛ ثم ذكر أنه لو لم يُعقد هذا الصلح وقاتلتهم قريش لانتصروا عليها، كما هي سنّته في نصر أوليائه على أعدائه، ولكنه أراد ذلك الصلح وكفّ الفريقين عن القتال من بعد أن أظهر المؤمنين عليهم، لأنّ مكة كانت لا يزال بها فريق من المسلمين لم يهاجروا إلى المدينة، فلو دخلها المسلمون عنوة لأصابوهم مع المشركين، ولهذا اقتضت إرادته ذلك، لتكتمل هجرة من بقي بمكة من المسلمين ولو تميزوا فيها من المشركين

لما كفَّ المسلمين عنهم، ولعذّبهم عذاباً أليماً.

ثم عاد السياق إلى ذكر فضله تعالى عليهم في ذلك الصلح، فأمرهم أن يذكروا إحسانه إليهم إذ ثارت حميّة الجاهلية في قلوب قريش وصدّوهم عن عُمْرَتِهِم، فأنزل سكينته عليهم فلم يغضبوا ولم ينهزموا بل صبروا، وكانوا أحق بهذا من أولئك الذين ثارت فيهم حميّة الجاهلية؛ ثم ذكر أنه حقق بذلك الصلح رؤيا النبي (ص) أنهم دخلوا المسجد الحرام مُحَلِّقين رؤوسَهم ومقصّرين، لأنهم اتّفقوا فيه على أن يرجع المسلمون هذا العامَ ويعتمروا في العام المقبل. فعلم، سبحانه، من ذلك الصلح ما لم يعلموا، وجعل من دونه فتحاً قريباً (فتح خيبر) وإنما يفعل ذلك لأنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾.



أسرار ترتيب سورة «الفتح»(*)

لا يخفى وجه حسن وضعها هنا، لأن الفتح بمعنى النصر، مرتّب على القتال، وقد ورد في الحديث: أنها مبينة لما يفعل بالرسول (ص) وبالمؤمنين، بعد إيهامه في قوله تعالى في الأحقاف: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾[1] [الأحقاف/٩] فكانت متصلة بسورة الأحقاف من هذه الجملة.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(١) هو قول ابن عبّاس رواه عنه علي بن طلحة. ولذا قال عكرمة والحسن وقتادة: إنّ آية «الاحقاف» منسوخة بآية «الفتح»: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾ [الآية ٢]. قالوا: ولمّا نزلت قال رجل من المسلمين: فما هو فاعل بنا؟ فنزل: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ﴾ [الآية ٥] انظر تفسير ابن كثير: ٧/ ٢٦٠.



مكنونات سورة «الفتح»(*)

١ - ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ [الآية ١١]

قال مُجاهِد: هم: جُهَيْنَةُ ومُزَيْنَةُ. أخرجه ابنُ أبي حاتم[١].

وأخرج عن مقاتِل: أنهم خمس قبائل.

٢ - ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الآية ١٦].

قال ابنُ عباس: هم فارس.

وقال سعيد بن جبير: أهل هوازن[٢]

وقال الضَّحّاك: ثقيف.

وقال جُويبر: مسيلمة وأصحابه.

أخرجها كُلَّها ابنُ أبي حاتم[٣].

٣ - ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الآية ١٨].

أخرج ابن أبي حاتم عن السُّدّي: أنه سُئِلَ كَمْ كان أهْل الشجرة عند بَيْعَةِ الرِّضْوان؟ قال: كانوا ألفاً وخمسمئة

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِماتِ الأقران في مُبْهَمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) والطبري ٢٦/ ٤٩.

(٢) وأخرجه الطبري أيضاً في «تفسيره» ٢٦/ ٥٢.

(٣) قال أبو جعفر بن جرير الطبري في «تفسيره» ٢٦/ ٥٢: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال إنّ الله تعالى أخبر عن هؤلاء المخلّفين من الأعراب أنهم سيدعون إلى قتال قوم أولي بأس في القتال ونجدة في الحروب، ولم يوضح لنا الدليل من خبر لا عقل على أن المَعْنِيّ بذلك هوازن لا بنو حنيفة ولا فارس ولا الروم ولا أعيانهم، وجائز أن يكون عُنِيَ بذلك بعض هذه الأجناس، وجائز أن يكون عُنِيَ بهم غيرهم، ولا قول فيه أصح من أن يقال كما قال الله جلّ ثناؤه إنهم سيدعون إلى قوم أولي بأس شديد».

وخمساً وعشرين.

وأخرج البخاري عن أبي الزبير قال: قلت لجابر: كم كُنْتُمْ يؤمئذٍ؟ قال: كُنَّا زهاء ألف وخمسمئة.

وأخرج مسلم[1] عن معقل بن يسار: أنهم كانوا ألفاً وأربعمئة.

وأخرج الشيخان[2] عن ابن أبي أوفى قال: كُنَّا يوم الشجرة ألفاً وثلاثمئةٍ.

وأخرج ابنُ أبي حاتم من حديث سَلَمَة بن الأكوع: أن الشجرة سَمُرَة[3].

٤ ـ ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ١٨﴾.

قال ابنُ أبي ليلى: فَتْحُ خَيْبَرَ[4]

وقال السُّدِّي: مكة.

أخرجهما ابنُ أبي حاتم.

٥ ـ ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ [الآية ٢١].

قال ابنُ أبي ليلى: فارس، والروم. أخرجه ابن أبي حاتم[5].

٦ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ [الآية ٢٤].

نزلت في ثمانين مِنْ أهل مكة، هَبَطُوا على النبي (ص) من التَّنْعِيم[6] ليقتلوه. أخرجه الترمذي[7] من حديث أنس.

---

(١) انظر «صحيح مسلم» كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام رقم (١٨٥٨).

(٢) البخاري (٤١٥٥) في المغازي، باب: غزوة الحديبية، ومسلم (١٨٥٧) في الإمارة باب: استحباب مبايعة الإمام.

وقد جمع الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» ٧/ ٤٤٠ بين الروايات بأن مع الزائد زيادة لم يطلع عليها غيره، والزيادة من الثقة مقبولة، أو أن الزيادة قد تكون من الأتباع الذين لحقوا بعد، كالخدم والنساء والصبيان الذين لم يبلغوا الحلم.

(٣) سَمُرَة: نوع من الطَّلْح، صغار الورق، قصار الشوك.

(٤) وأخرجه الطبري ٢٦/ ٥٥.

(٥) والطبري ٢٦/ ٥٧.

(٦) التَّنْعِيم: موضع بمكة في الجبل، وهو بين مكة وسرف، على فرسخين من مكة

(٧) برقم (٣٢٦٠) في التفسير، وأخرجه أيضاً: مسلم في «صحيحه» في الجهاد والسِّيَر (١٢٢).

لغة التنزيل في سورة «الفتح» (*)

قال تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ﴾ [الآية ٩]

أي: تقوّوه بالنُّصرة.

أقول: وهذا ما لا نعرفه في العربية المعاصرة.

وفي عامية العراقيين التعزير ضرب من التأنيب.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ [الآية ٢٥].

وقوله سبحانه: ﴿وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ أي: محبوساً عن أن يُباع.

أقول: وهذا معنى لا نعرفه وهو مِن كَلِمِ القرآن، وكلُّه فرائد.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الآية ٢٥].

أي: يصيبكم ما تكرهون، ويَشُقُّ عليكم.

والمعَرّة بهذا المعنى أي: المصيبة، وما يعتريكم من نازلة أو داهية شيء غير «المعرّة» في العربية المعاصرة التي تعني السوء والقبح.

٤ ـ وقال تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾.

والمراد بقوله تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾، لو تفرّقوا وتميَّز بعضهم من بعض: من زاله يزيله.

وقُرِئ: (لو تزايَلوا).

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

٥ ـ وقال تعالى: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ﴾ [الآية ٢٩].

وقوله سبحانه: ﴿شَطْأَهُ﴾ أي: فِراخه. ويقال أشطأ الزرع إذا فَرَّخ.

وقوله عزّ وجل: ﴿فَآزَرَهُ﴾ من المُؤازرة وهي المعاونة.



المعاني اللغوية في سورة «الفتح»(*)

قال تعالى: ﴿وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا﴾ [الآية ٢٥] على وَصَدُّوا ﴿وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا﴾ كراهية ﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾.

وقال تعالى: ﴿أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَآزَرَهُ﴾ [الآية ٢٩] يريد «أَفْعَلَه» من «الإزارَة».

وقال تعالى: ﴿أَن تَطَئُوهُمْ﴾ [الآية ٢٥] على البدل «لولا رجال أن تطأوهم».

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

لكل سؤال جواب في سورة «الفتح»(*)

إن قيل: لِمَ جعل فتح مكة علة للمغفرة، فقال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾؟

قلنا: لم يجعله علة للمغفرة بل لاجتماع ما وعده من الأمور الأربعة، وهي المغفرة وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز. وقبل الفتح لم يكن إتمام النعمة والنصر العزيز حاصلاً، وإن كان الباقي حاصلاً. ويجوز أن يكون فتح مكة سبباً للمغفرة من حيث هو جهاد للعدو.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الآية ٢] إن كان المراد بما تأخر ذنباً يتأخر وجوده عن الخطاب بهذه الآية فهو معدوم عند نزولها، فكيف يغفر الذنب المعدوم، وإن كان المراد به ذنباً وجد قبل نزولها فهو متقدم فَلِمَ سماه متأخراً؟

قلنا: المراد بما تقدم قصة مارية، وبما تأخر قصة امرأة زيد. وقيل المراد بما تقدم ما وجد منه، وبما تأخّر مالم يوجد منه على معنى أنه موعود بمغفرته على تقدير وجوده، أو على طريق المبالغة كقولهم: فلان يضرب من يلقاه ومن لايلقاه؛ بمعنى يضرب كل أحد، فكذا هنا معناه ليغفر لك الله كل ذنب: فالحاصل أن الذنب المتأخّر متقدّم على نزول الآية، وإن كان متأخّراً بالنسبة إلى شيء آخر قبله، أو متأخراً عن نزولها وهو موعود بمغفرته، أو على طريق المبالغة كما بيّنا.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

فإن قيل: ما معنى قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ وهو مَهديٌ إلى الصراط المستقيم، ومهديّة به أمته أيضاً.

قلنا: معناه ويزيدك هدًى؛ وقيل ويثبّتك على الهدى، وقيل معناه ويهديك صراطاً مستقيماً في كل أمر تحاوله.

فإن قيل: كيف يقال إن الإيمان لا يقبل الزيادة والنقصان، وقد قال الله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الآية ٤]

قلنا: الإيمان الذي يقال إنه لا يقبل الزيادة والنقصان هو الإقرار بوجود الله تعالى، كما أن إلهيته سبحانه، لا تقبل الزيادة والنقصان؛ فأما الإيمان بمعنى الأمن أو اليقين أو التصديق فإنه يقبلهما؛ وهو في الآية بمعنى التصديق، لأنهم بسبب السكينة التي هي الطمأنينة وبرد اليقين كلما نزلت فريضة وشريعة صدّقوا بها فازدادوا تصديقاً مع تصديقهم.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله تعالى: ﴿وَأَهْلَهَا﴾ [الآية ٢٦] بعد قوله جلّ وعلا ﴿وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا﴾ [الآية ٢٦]؟

قلنا الضمير في «بها» لكلمة التوحيد، وفي «أهلها» للتقوى فلا تكرار.

فإن قيل: ما وجه تعليق الدخول بمشيئة الله تعالى في أخباره سبحانه وتعالى، حتى قال: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الآية ٢٧].

قلنا: فيه وجوه: أحدها أن «إن» بمعنى إذ، كما في قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة]. الثاني: أنه استثناء من الله تعالى فيما يعلم تعليماً لعباده أن يستثنوا فيما لا يعلمون. الثالث: أنه على سبيل الحكاية لرؤيا النبي (ص) فإنه رأى أن قائلاً يقول له ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الآية ٢٧]. الرابع: أن الاستثناء متعلق بقوله تعالى﴿ءَامِنِينَ﴾ [الآية ٢٧]. فأما الدخول فليس فيه تعليق.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله تعالى: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ [الآية ٢٧] بعد قوله سبحانه: ﴿ءَامِنِينَ﴾ [الآية ٢٧]؟

قلنا: معناه آمنين في حال الدّخول، لا تخافون عدوكم أن يخرجكم منه في المستقبل.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الآية ٢٩] تعليل لأي شيء؟

قلنا: لما دل عليه تشبيههم بالزرع من نمائهم وقوتهم، كأنه قال: إنما كثّرهم وقوّاهم ليغيظ بهم الكفار.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾، وكل أصحاب النبي(ص) موصوفون بالإيمان والعمل الصالح وبغيرهما من الصفات الحميدة التي ذكرها الله تعالى في هذه الآية، فما معنى التبعيض هنا؟

قلنا: «مِنْ» هنا لبيان الجنس لا للتبعيض، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج/ ٣٠].




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المعاني المجازية في سورة «الفتح»(*)

١ ـ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الآية ١٠]. استعارة، واليد هٰهنا تعرف على وجوه: أحدها أن يكون المعنى عقد البيعة فوق عقدهم. وقيل المراد قوّة الله تعالى في نصرة نبيه (ص) فوق قوّة نصرتهم. وقيل اليد هٰهنا بمعنى السلطان والقدرة كما يقول القائل فلان تحت يد فلان أي تحت سلطانه وأمره. فيكون المعنى أنّ سلطان الله تعالى في هذا الأمر فوق سلطانهم، وأمره فوق أمرهم. وقيل في ذلك وجه آخر، وهو أن العادة جارية في المبايعات والمعاقدات أن تقع الصفقة بالأيدي من البائع والمشتري. ومن هناك قالوا صفقة رابحة وصفقة خاسرة، فقيل: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ ذهاباً إلى هذا المعنى، كأنه سبحانه قال: فالذي أعطاكم الله، في هذه المبايعة، أعلى ممّا اعطيتم وأجلّ وأربح وأفضل.

٢ ـ وفي قوله تعالى: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ [الآية ٢٩] استعارة لأنه شبّه اصحاب النبي (ص) في تضافرهم وتآزرهم واشتدادهم وأضدادهم(١) بالزرع الملتفّ المتكاثف الذي يقوّى بعضه ببعض ويستند بعضه إلى بعض. وشَطَأَ الزَّرْعُ خرجت أَفْرُخُهُ التي تنبت الى أصوله. ويقال شَطْأه ممدود،

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) كذا في النسخة، ونظنّ أن الأصل واحتشادهم.

ويقال: قد أشطأ الزرعُ فهو مُشطِئ إذا أفرخ. ومعنى آزره أي صار فراخ الزرع له أزراً وقوّة ودِعاماً ومُسْكَةً. وقيل: شَطْأه سُنبُلُهُ فيكون المراد هو آزره حب السُّنْبُل بعضه لبعض، حتى تشتد كل حبة بأختها. والتأويلان متقاربان وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾، أي قوي وغَلُظَ واستقام على نصبه، كما يقوم القائم على ساقه، ويعتمد على قدمه وهذه استعارة أخرى.





سورة الحُجرات

٤٩


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

أهداف سورة «الحجرات»(*)

الآداب العامة

هذه سورة الآداب العامة ومكارم الأخلاق والتهذيب والتأديب، سورة هذّبت وجدان المسلمين، وحركت فيهم دوافع الخير والمعروف، وحاربت نوازع السخرية والاستهزاء بالآخرين، وحَثّت على إزالة أسباب الخصام والبغضاء، وحَرِصت على تأليف القلوب وإشاعة المحبة والمودة بين الناس، ولذلك نهت عن ظن السوء بالمسلم المخلص، وعن تتبّع العورات المستورة، وعن الغيبة واللّمز والتّنابُزِ بالألقاب. وبيّنت أنّ النّاس جميعاً عند الله سواء، كلهم لآدم، وآدم من تراب؛ فهم يتفاضلون عنده، سبحانه، بالتقوى، ويدركون ثوابه بالعمل الصالح.

منهج الحياة

سورة «الحجرات» يمكن أن تكون دائرة معارف شاملة لتربية الفرد وتهذيب الجماعة، فهي تقدّم منهجاً للحياة السليمة، ونظاماً تربويّاً ناجحاً لمواطن صالح مؤمن بربه، يحترم دينه ويؤدّي شعائره.

جاء في كتاب «ظلال القرآن» ما يأتي:

«هذه سورة جليلة ضخمة، تتضمن حقائق كبيرة من حقائق العقيدة والشريعة، ومن حقائق الوجود

(*) انتُقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

والانسانية، حقائق تفتح للقلب وللعقل آفاقاً عالية، وآماداً بعيدة، وتثير في النفس والذهن خواطر عميقة ومعاني كبيرة، وتشمل، من مناهج التكوين والتنظيم، وقواعد التربية والتهذيب، ومبادئ التشريع والتوجيه، ما يتجاوز حجمها وعدد آياتها مئات المرات.

«وهي تُبْرز أمام النظر أمرين عظيمين للتدبير والتفكير. وأول ما يبرز للنظر، عند مطالعة السورة: أنها تستقل بوضع معالم كاملة لعالم رفيع كريم نظيف سليم، متضمنة القواعد والأصول والمبادئ والمناهج التي يقوم عليها هذا العالم، والتي تكفل قيامه أولاً وصيانته أخيراً، عالم يصدر عن الله، ويتجه الى الله، ويليق أن ينتسب الى الله، عالم نقي القلب نظيف المشاعر، عفّ اللسان، وقبل ذلك عفّ السريرة، عالم له أدب مع الله وأدب مع رسوله، وأدب مع نفسه، وأدب مع غيره، أدب في هواجس ضميره، وفي حركات جوارحه، وفي الوقت ذاته له شرائعه المنظمة لأوضاعه، وله نظُمه التي تكفل صيانته، وهي شرائع ونظُم تقوم على ذلك الأدب، وتنبثق منه، وتتّسق معه. فيتوافى باطن هذا العالم وظاهره، وتتلاقى شرائعه ومشاعره، وتتوازن دوافعه وزواجره، وتتناسق أحاسيسه وخُطاه وهو يتجه ويتحرك الى الله. ومن ثَمّ لا يوكل قيام هذا العالم الرفيع الكريم النظيف السليم وصيانته، لمجرد أدب الضمير ونظافة الشعور، ولا يوكل كذلك لمجرد التشريع والتنظيم، بل يلتقي هذا بذاك في انسجام وتناسق، كذلك لا يوكل لشعور الفرد وجهده، كما لا يترك لنظم الدولة وإجراءاتها، بل يلتقي فيه الأفراد بالدولة، والدولة بالأفراد، وتتلاقى واجباتهما ونشاطهما في تعاون واتساق»[1].

معاني السورة

اشتملت السورة على طائفة كريمة من المعاني الإسلامية والآداب الدينية، فقد أمرت المسلمين ألا يَصْدُروا في أحكامهم إلاّ عن طاعة الله والتزام أوامره، ويجب ألا يسبقوا أحكام الله، وأن يجعلوا اختيارهم وذوقهم الديني تابعاً لِهُدَى الله.

---

(١) في ظلال القرآن، للاستاذ سيد قطب ٢٦/ ١٢٥.

وهي تأمرهم بالتزام الأدب أمام النبي الكريم، وبحسن المعاملة وخَفض الصوت عند خطاب الرسول الأمين، لأنه هو خاتم المرسلين، وهو الذي بلّغ الرسالة وأدّى الأمانة، ونصح الأمة، وربّى المسلمين تربية إلهية، حتى صاروا خير أمة أخرجت للناس [الآيات ٢ ـ ٥].

وتأمر السورة المسلمين أن يتثبّتوا في أحكامهم، وألا يُصَدِّقوا أخبار الفاسقين وإشاعات المغرضين وأراجيف المرجفين، فالرسول معهم، وهُدَى القرآن والسنّة بين أيديهم، وحقائق الإيمان وأحكامه واضحة أمامهم، وقد حبّب الله إليهم الإيمان وحجب عنهم الكفر والعصيان؛ فللّه الفضل والمِنّة، وهو العليم بعباده الحكيم في أفعاله [الآيات ٦ ـ ٨].

والمؤمنون أمّة واحدة، ربّهم واحد وقبلتهم واحدة، وكتابهم واحد، ودينهم يقوم على التسامح والتعاون والتناصح. فإذا حدث خلاف بين طائفتين، أو قتال ونزاع، فمن الواجب أن نحاول الصلح بينهما؛ واذا أصرّت إحدى الطائفتين على البغي والعدوان فمن الواجب أن نقف في وجه المعتدي حتى يفيء الى الحق، وعلينا أن نؤكّد مفاهيم الحق والعدل، وأن نحثّ على الإصلاح ورأب الصَّدْع، حفاظاً على وحدة الأمة، وجمع شمل المسلمين [الآيات ٩ ـ ١٠].

وتأمر الآيات بالبعد عن السخرية والاستهزاء بالآخرين، فالإنسان إنسانٌ بِمَخْبَرِهِ وإنسانيته لا بمظهره وتعاليه. وهناك قيم حقيقية لمقادير الناس، هي حُسْن صلتهم بالله ورِضَى الله عنهم. فقد يَسْخر الغني من الفقير، والقوي من الضعيف، وقد تَسْخر الجميلة من القبيحة، والشابة من العجوز، والمعتدلة من المشوّهة. ولكن هذه وأمثالها من قيم الأرض ليست المقياس. فميزان الله يرفع ويخفض بغير هذه الموازين، ورُبَّ أشعثَ أغبرَ لو أقسم على الله لأَبَرَّه. وتُحَرِّمُ الآيات كذلك اللمز والسخرية بالآخرين، والتنابز بالألقاب التي يكرهها أصحابها ويُحسُّون فيها مهانة وعيباً. فشتّان ما بين آداب الإيمان، وما بين الفسوق والعصيان، وظلم الآخرين [الآية١١].

وتستمر الآيات فتنهَى عن ظنّ السوء، وعن تتبّع عورات الناس حتّى يعيش الناس آمنين على بيوتهم وأسرارهم، وحتّى تصان حقوقهم

وحرّياتهم، وتنهى عن الغِيبةِ وتُحَذِّر منها، وتبيّن أنّ الناس جميعاً خُلقوا من أصل واحد، ثم تفرعت بهم الشعوب والقبائل، والعلاقة بين الناس أساسها التعارف على الخير، وأكرم الناس عند الله أكثرهم تقوى وطاعةً لأمره والتزاماً بهَدْيِهِ [الآيات ١٢ ـ ١٣].

الإيمان قول وعمل

وفي ختام السورة نجد لوحة هادفة، ترسم معالم الايمان.

فالمؤمن الحق مَنْ آمن بالله ورسوله، ولم يتطرق الشك الى قلبه، وأتبَعَ ذلك بالجهاد والعمل على نصرة الإسلام، وسار في طريق العقيدة السليمة والتزم بآدابها وهَدْيِها.

ونجد صورة نابية للأعراب الذين افتخروا بالإيمان، وتظاهروا به رياءً وسُمْعَةً، وجاءوا في تِيهٍ وخُيَلاء يَمُنُّون على النبي أنّهم دخلوا في الإسلام، وهي صورة كريهة فيها الرياء والسمعة والمنة، مع أن الله هو العليم بنفوسهم والبصير بخباياهم، وهو صاحب الفضل والمنّة عليهم إن كانوا صادقين.

إن المؤمنين الصادقين هم الذين آمنوا بالله ربّاً، واختاروا الإسلام ديناً، وصدّقوا بمحمد (ص) نبيّاً ورسولاً، وجمعوا بين صدق اليقين وأدب السلوك [الآيات ١٤ ـ ١٨].

وفي الحديث الشريف: «ليس الإيمان بالتمنّي ولكن ما وَقَرَ في القلبِ وصَدَّقَ في العمل».

الهدف الاجمالي للسورة

قال الفيروزآبادي: معظم مقصود سورة الحجرات ما يأتي:

«المحافظة على أمر الحق تعالى، ومراعاة حرمة الأكابر، والتُّؤَدَة في الأمور، واجتناب التهوّر، والنجدة في إغاثة المظلوم، والاحتراز عن السخرية بالخلق والحذر عن التجسّس والغِيبة وترك الفخر بالأحساب والأنساب، والتحاشي عن المِنّة على الله بالطاعة».

«وقد تكرّر خطاب المؤمنين في السورة خمس مرات، بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ والمخاطَبون هم المؤمنون في الآيات [١و٢و٦و١١و١٢] والمخاطَبُ به أمر ونهي، وفي الآية [١٣] ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ والمخاطب به المؤمنون والكافرون حيث قال سبحانه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الآية ١٣] والنّاس كلّهم في ذلك شرع سواء».

المبحث الثاني

ترابط الآيات في سورة «الحجرات»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة «الحُجُراتِ» بعد سورة «المجادلة»، ونزلت سورة «المجادلة» بعد سورة «المنافقون»، ونزلت سورة «المنافقون» في غزوة بني المُصْطَلِق في السنة الخامسة من الهجرة، فيكون نزول سورة «الحجرات» فيما بين صلح الحُدَيْبِيَة وغزوة تَبُوك.

وقد سُميت هذه السورة بهذا الاسم، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ وتبلغ آياتها ثماني عشرة آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السورة إرشاد المؤمنين الى بعض الآداب في حق الله والرسول، إلى آداب أخرى ذُكرت فيها مع هذه الآداب. وقد حصل من المؤمنين في صلح الحُدَيْبِية أن اعترضوا على بعض ما جاء فيه، وأنهم لم يبادروا الى امتثال أمر النبي (ص) لهم أن يحلقوا أو ينحروا ليتحَلَّلوا من عُمْرَتِهِمْ، فجاءت سورة الحجرات عَقِبَ سورة «الفتح» التي ذُكر فيها ذلك الصلح إرشاداً للمؤمنين إلى تلك الآداب، حتى لا يعودوا الى ما وقع منهم من الاعتراض على النبي (ص)، ومن عدم المبادرة الى امتثال أمره.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجمايز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرخ.

أدب المؤمنين مع الله ورسوله
الآيات [١ ـ ٥]

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ فذكر من أدب المؤمنين مع الله ورسوله ألاّ يتقدموا عليهما بالرأي، وألاّ يرفعوا أصواتهم فوق صوت الرسول (ص)، وألاّ يَجْهَروا له بالخطاب كجَهْر بعضهم لبعض، وألاّ ينادوه من وراء الحجراتِ كما ناداه بعض جُفاة الأعراب: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

أدب المؤمنين في سماع الأخبار
الآيات [٦ ـ ٨]

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾﴾، فذكر من أدب المؤمنين في سماع الأخبار أن يتثبّتوا في تصديق أخبار الفُسّاق، فلا يسمعوا لكلّ ما يلقى إليهم كما سمعوا لما ألقي إليهم، في ذلك الصلح، ولو أن الرسول سمع إليهم في هذا وفي غيره من أمورهم، لوقعوا في العَنَت. ولكن الله حبّب إليهم الإيمان، وكرّه إليهم الكفر والفُسُوق والعِصْيان، فلم يجعلوا لهم رأياً مع رأيه ﴿فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾.

ترغيب المؤمنين في الصلح
الآيات [٩ ـ ١٨]

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الآية ٩]، فرَغّب المؤمنين في الصلح لئلاّ يأبَوْهُ كما أبَوْهُ في الحُدَيْبِيَة، وأمَرَهم أن يصلحوا بين كلّ طائفتين تَقْتَتلان من المؤمنين، وأن يقاتلوا من يأبى منهما الصلح حتى يرضى به، فإذا رَضِيَ به وَجَبَ أن يُصلَحَ بينهما بالعَدْل، ثم نهاهم عمّا يُوجِبُ الخصام بينهم من سخرية بعضهم ببعض، ومن عيب بعضهم الآخر في غيبته، وهو اللّمْز، ومن تسمية بعضهم بعضاً بما يحطُّ منه، وهو النّبْز، ومن سوء ظنّ بعضهم ببعض، إلى غير هذا ممّا يوجب الخصام بينهم؛ ثم ذكر، جلّ وعلا، أنه خلقهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا لا ليتناكروا ويتخاصموا، وأنّ أكرمهم

عنده هو الذي يمتثل أوامره ويجتنب نواهيه، لا من يتعالى على غيره بِنَسَبٍ أو نحوه فيخاصمه ولا يصالحه.

ثم خُتمت السورة بالكلام على الأعراب الذين يكتفون من الإسلام بالاسم، ولا يأخذون بشيء من آدابه، بل يمضون على ما كانوا عليه في جاهليتهم من الجفوة والتخاصم والتناكر، فأنكر، سبحانه، عليهم ما يدّعون من الإيمان، وذكر أنهم لم يحصل لهم إلا إسلام لا يتجاوز النطق باللسان، ثم أخذ السّياق في هذا الى أن ذكر أنهم يمنُّون على النبي (ص) بإسلامهم، وأجاب عن هذا بأن الله سبحانه هو الذي يَمُنُّ عليهم بهدايتهم للإيمان إن كانوا صادقين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾.




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المبحث الثالث

أسرار ترتيب سورة «الحجرات»(*)

لا يَخفى تآخي هاتين السورتين (الفتح والحجرات) مع ما قبلهما، لكونهما مدنيتين، ومشتملتين على أحكام. فتلك فيها قتال الكفّار، وهذه فيها قتال البغاة[1]. وتلك خُتمت بالذين آمنوا، وهذه افتتحت بالذين آمنوا[2]؛ وتلك تضمنت تشريفاً له (ص)، خصوصاً مطلعها، وهذه أيضاً في مطلعها أنواع من التشريف له (ص)[3].

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(١) قتال الكفّار في «الفتح» معروف، لأنها في فتح مكة، وقتال البغاة في «الحجرات» جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الآية ٩].

(٢) ختام الفتح: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ وافتتاح الحجرات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

(٣) تشريفه (ص) في «الفتح» في قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ [الآية ٢]. وتشريفه في مطلع الحجرات: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الآية الأولى]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [الآية ٣]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مكنونات سورة «الحجرات»(*)

١ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ [الآية ٤].

نزلتْ في ناس من الأعراب منهم: الأقرَعُ بن حابس. أخرجه أحمد وغيره.

٢ـ ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ﴾ [الآية ٦].

نزلت في الوليد بن عقبة. أخرجه أحمد وغيره من حديث الحارث بن ضرار الخزاعي.

٣ـ ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ [الآية ١٤].

هم بنو أسد. أخرجه سعيد بنُ منصور عن سعيد بن جبير.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِماتِ الأقران في مُبْهَمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

لغة التنزيل في سورة «الحجرات»(*)

١ ـ قال تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ (٩).

والقِسْط: العدل، والفعل أقسَطَ، والهمزة للسلب، وهذا يعني: أن الفعل «قَسَطَ» بمعنى جارَ ظلم.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الآية ١١].

أقول: دلت كلمة ﴿قَوْمٌ﴾ في الآية على الرجال بدلالة قوله تعالى: ﴿وَلَا نِسَآءٌ﴾ وهذا مثل قول زهير:

وما أدري ولستُ إخال أدري
أقومٌ آلُ حِصنٍ أم نساءُ

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المعاني اللغوية في سورة «الحجرات»(*)

قال تعالى: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ [الآية ٢] أي: مخافة أنْ تَحْبَطَ أعمالُكم وقد يقال: «اسْمُكِ الحائِطَ أنْ يَمِيلَ».

وقال ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ﴾ [الآية ١٣] بالكسر ابتداءً ولم يُحمل الكلام على ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الآية ١٣].



(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

لكل سؤال جواب في سورة «الحجرات»(*)

إن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الآية ١]، والمراد به نَهْيُهم أن يتقدّموا على رسول الله (ص) بقول أو فعل، لا أن يقدّموا غيرهم.

قلنا: «قدّم» هنا لازم بمعنى «تقدّم»، كما في قولهم: بيَّن وتبيَّن، وفكَّر وتفكَّر، ووقَّف وتوقَّف، ومنه قول الشاعر:

إذا نحنُ سِرنا سارَتِ الناسُ خلفَنا

وإنْ نحنُ أومَأنا إلى الناسِ وَقَّفُوا

أي توقفوا، وقيل معناه: لا تقدّموا فعلاً قبل أمر رسول الله (ص).

فإن قيل: ما الحكمة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ [الآية ٢] بعد قوله سبحانه: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ [الآية ٢].

قلنا: فائدته تحريم الجهر في مخاطبته (ص) باسمه نحو قولهم يا محمد، ويا أحمد، فهو أمر لهم بتوقيره وتعظيمه (ص) في المخاطبة. وأن يقولوا يا رسول الله، ويا نبي الله، ونحو ذلك، ونظيره قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور/ ٦٣].

فإن قيل: لم قال تعالى: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ [الآية ٢] أي مخافة أن تَحْبَط

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

أعمالكم مع أن الأعمال إنّما تحبط بالكفر لا بغيره من المعاصي، ورفْع الصوت في مجلس النبي (ص) ليس بكفر؛ وقد رُوِيَ أن الآية نزلت في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لمّا رفعا صوتيهما بين يدي رسول الله (ص)؛ وأنها نزلت في ثابت بن قيس بن شماس وكان جهْوريّ الصّوت، فربما تأذّى رسول الله (ص) بصوته؟

قلنا: معناه لا تستخفّوا به، فإن الاستخفاف به ربّما أدى خطأه الى عمده، وعَمْدُه كفرٌ يُحبِط العمل. وقيل حبوط العمل مجاز عن نقصان المنزلة وانحطاط المرتبة.

فإن قيل: ما وجه الارتباط والتعلق بين قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ [الآية ٧] وبين ما قبله؟

قلنا: معناه فاتركوا عبادة الجاهلية، فإن الله تعالى لم يترككم عليها، ولكن الله حبّب إليكم الإيمان. وقيل معناه فتثبّتوا في الأمور كما يليق بالإيمان، فإن الله حبّب إليكم الإيمان.

فإن قيل: إن كان الفسوق والعصيان بمعنًى واحد، فما فائدة الجمع بينهما، وإن كان العصيان أعم من الفسوق فذِكْرُه مُغْنٍ عن ذكر الفسوق لدخوله فيه فما فائدة الجمع بينهما؟

قلنا: قال ابن عباس رضي الله عنهما: المراد بالفسوق هنا الكذب، وبالعصيان بقية المعاصي، وإنما أُفرد الكذب بالذكر لأنه سبب نزول الآية.

فإن قيل: كيف يقال إن الإيمان والإسلام بمعنى واحد، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ [الآية ١٤].

قلنا: المنفي هنا الإيمان بالقلب بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الآية ١٤] يعني لم تصدّقوا بقلوبكم ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ [الآية ١٤] أي استسلمنا وانقدنا خوف السيف؛ ولا شكّ في الفرق بين الإيمان والإسلام بهذا التفسير، والذي يَدّعي اتحادهما لا يريد به أنهما حيث استُعْملا كانا بمعنًى واحد، بل يريد به أن أحد معاني الإيمان هو الإسلام.

فإن قيل: كيف يقال إن العمل ليس

من الإيمان، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الآية ١٥]؟

قلنا: معناه إنما المؤمنون إيماناً كاملاً، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر/ ٢٨]، وقوله (ص) «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»، وقولهم: الرجل من يصبر على الشدائد. ويرد على هذا الجواب أن المنفي في أول الآية عن الإعراب نفس الإيمان الكامل، فلا يناسب أن يكون المثبت بعد ذلك الإيمان الكامل بل نفس الإيمان.



المعاني المجازية في سورة «الحجرات»(*)

١ـ في قوله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ استعارة. وقد قرئ «لا تَقَدَّموا» بفتح التاء والدال، والمعنيان واحد، والمراد بذلك لا تسبقوا أمر الله ورسوله بفعلٍ ما لم يأمرا به ويندبا اليه. وقال أبو عبيدة: العرب تقول فلان تقدّم بين يدي الإمام أي تعجّل بالأمر والنهي دونه، وذلك مضادٌّ لما وصف الله به ملائكته، إذ يقول: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء]. ومن قرأ ﴿تُقَدِّمُواْ﴾ بضم التاء فإنما يريد به لا تقدّموا كلامكم بالحكم في الأمر قبل كلام الله سبحانه وكلام رسوله (ص)، أي قبل الوحي النازل منه، وقبل أداء رسوله إليكم ما أوحي به وأُمر بتبليغه.

٢ـ وفي قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الآية ١٢]، استعارة ومبناها على أصل معروف في كلام العرب، وهو تسميتهم المغتاب بآكل لحوم الناس، حتى قال شاعرهم[1]:

فإن أكلوا لحمي وَفَرْتُ لحومهم
وإن هدموا مجدي بَنَيْتُ لهم مجدًا

وقال حسان بن ثابت في مرثية ابنة له[2]:

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) هو المقنّع الكندي.

(٢) المعروف أن هذا البيت من قصيدة له في مدح عائشة.

حَـصَـانٌ رَزَانٌ لا تُـزَنُّ بِـرِيْـبَـةٍ[1]
وتُصْبِحُ غَرْثَى مِنْ لحومِ الغوافلِ

أي تُمسك عن غيبة النساء الغافلات عن غيبتها، فتكون بإمساكها عن الغِيبة التي يسمى فاعلها آكل لحم صاحبه، كأنها غرثى أي جائعة لم تطعم شيئاً، لأنّ الغيبة، لمّا سُمِّيت أكلاً وقَرَماً[2] حَسُن أن يسمّى تركها جوعاً وغرَثاً. ومعنى ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي عافته أنفسكم، فكرهتموه، وهذا محذوف مقدّر في الكلام دلالة. وقال بعضهم تلخيص هذا المعنى أن من دعي الى أكل لحم أخيه ميتاً فعافته نفسه وكرهه من جهة طبعه، فإنه ينبغي له، إذا دعي إلى غيبة أخيه، أن تعاف ذلك نفسه من جهة عقله، لأنه يجب أن يكره هذا عقلاً كما كره الأوّل طبعا؛ لأنّ داعي العقل أحقّ بالاتّباع من داعي الطبع، إذ كان داعي الطبع أعمى جاهلاً وداعي العقل بصيراً عالماً، فكلاهما في صفة الناصح، إلاّ أنّ نصح العقل سليم مأمون، ونصح الطبع ظنين مدخول.

---

(١) وردت في بعض الأصول لفظة «بربية» محل بزينة.

(٢) القَرَم: شِدَّةُ الشَّهْوَةِ إلى اللحم. ابن منظور: اللسان، مادة قرم. [وفي الأصل: من قَرَمَ: أَكَل أكلاً ضعيفاً، وذلك في أوّل ما يأكل]. وهذا الشرح للمحقّق، وهو ليس دقيقاً.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



سورة قٓ
٥٠


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

أهداف سورة «ق»(*)

سورة «ق» سورة مكية آياتها ٤٥ آية، نزلت بعد سورة «المُرْسَلات».

سورة الخطبة

كان (ص) يخطب خطبة الجمعة بسورة «ق» حتى قالت النساء: ما حفظنا سورة «ق» إلاّ من خطبة النبي (ص) بها؛ وهي سورة تحمل أصول التوحيد وتلفت النظر الى دلائل القدرة في خلق السماء والأرض وآثار الله الملموسة في إنزال المطر وإنبات النبات، وتُرْشد الى سنن الله في إهلاك الظالمين، واستحقاق الوعيد للمكذّبين، وتَجُول بالإنسان داخل نفسه، وتستعرض مشاهد القيامة وجزاء المتّقين في الجنّة، وجزاء العصاة في النار.

وقد سلكت السورة في عرض معانيها أسلوباً رائعاً أخّاذاً، له سيطرته على النفس والحِسّ، وطريقته الفذّة في هز أوتار القلوب.

جاء في «ظلال القرآن»

«سورة ق سورة رهيبة، شديدة الوقع بحقائقها، شديدة الإيقاع ببنائها التعبيري؛ وصورُها وظلالها وجرس فواصلها، تأخذ على النفس أقطارها، وتلاحقها في خطراتها وحركاتها، وتتعقّبها في سرّها وجهرها؛ وفي باطنها وظاهرها؛ تتعقّبها برقابة الله التي

(*) انتُقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

لا تَدَعُها لحظة واحدة من المولد إلى الممات، إلى البعث، إلى الحشر، إلى الحساب؛ وهي رقابة شديدة دقيقة رهيبة، تُطْبق على هذا المخلوق الإنساني الضعيف إطباقاً كاملاً شاملاً، فهو في القبضة التي لا تَغْفُلُ عنه أبداً، ولا تُغْفِلُ مِنْ أمره دقيقاً ولا جليلاً، ولا تفارِقُهُ كثيراً ولا قليلاً. كلُ نَفَس معدود، وكلُ هاجسة معلومة، وكلّ لفظ مكتوب، وكلّ حركة محسوبة. والرقابة الكاملة الرهيبة مضروبة في وساوس القلب، كما هي مضروبة على حركة الجوارح. ولا حجاب ولا ستار دون هذه الرقابة النافذة، المطّلعة على السّر والنّجوى اطّلاعها على العمل والحركة، في كلّ وقت، وفي كلّ حال.

وكلُ هذه حقائق معلومة، ولكنها تُعرض في الأسلوب الذي يبديها وكأنها جديدة، تَرُوع الحس روعة المفاجأة، وتهزّ النفس هزاً، وتَرُجُها رجّاً؛ وتثير فيها رعشة الخوف، وروعة الإعجاب، ورجفة الصحو من الغفلة على الأمر المَهُول الرهيب.

وذلك كلّه الى صوَر الحياة، وصور الموت، وصور البِلى، وصور البعث وصور الحشر، وإلى إرهاص الساعة في النفس، وتوقُّعها في الحسّ، وإلى الحقائق الكونية المتجلّية في السماء والأرض، وفي الماء والنبات وفي التمر والطلع»: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾.

فواتح السور

تبدأ سورة «ق» بهذا الحرف المنفرد: «ق».

وقد بدأت بعض سور القرآن بهذه الأحرف المقطّعة، فمنها ما بدأ بحرف واحد مثل هذه السورة ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾﴾ ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾﴾ [ص] ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾﴾ [القلم].

ومنها ما بدأ بحرفين مثل﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾﴾ [طه] ومثل يس، حم.

ومنها ما بدأ بثلاثة أحرف مثل: الر، الم، طسم.

ومنها ما بدأ بأربعة أحرف مثل: المص، المر.

ومنها ما بدأ بخمسة أحرف مثل: كهيعص، حم عسق.

معاني هذه الفواتح:

هناك رأيان في معنى هذه الفواتح:

الرأي الأول: أنها ممّا استأثر الله تعالى بعلمه، ولذلك نجد في تفسير الجلالين، وهو تفسير مختصر، (ق) الله أعلم بمراده به.

الرأي الثاني: أنّ لها معنى، وقد ذهبوا في معناها مذاهب شتى:

١. فمنهم من قال: هي أسماء للسور التي بدأت بها.

٢. ومنهم من قال: هي إشارة الى أسماء الله تعالى أو صفاته.

رُوي عن الضحاك في معنى ﴿الٓر﴾: أنا الله أرفع.

٣. ومنهم من قال: هي قسم.

٤. ومنهم من قال: هي حروف للتنبيه، كالجرس الذي يقرع فينتبه التلاميذ لدخول المدرسة.

٥ . ومنهم من قال: هي حروف للتحدّي وبيان إعجاز القرآن.

٦ . وقيل إن هذه الأحرف قد اشتملت على المعاني جمعيها، التي ذكرها العلماء في تفسيرها. فهي أسماء للسور، وهي إشارة الى أسماء الله تعالى وصفاته، وهي للقسم، وهي أدوات للتنبيه، وهي حروف للتحدّي والإعجاز، وهي أيضا مما استأثر الله بعلمه.

معاني سورة «ق»

هذه سورة مكية عُنيت بسَوْقِ الحجج والأدلة على قدرة الله سبحانه، على تأكيد البعث والجزاء.

وقد بدأت السورة بمواجهة المشركين، وعرض أفكارهم، وعَجَبهم أن يكون الرسول بشراً مثلهم؛ كما أنهم أنكروا البعث والحشر بعد الموت، واستدلُوا بدليلِ ساذجٍ، هو تفسخ الأجسام وصيرورتها تراباً.

والقرآن يوضح قدرة الله تعالى وعلمه الشامل بما تأكله الأرض من أجسامهم، فهم لا يذهبون ضَياعاً إذا ماتوا وكانوا تراباً؛ أما إعادة الحياة الى هذا التراب فقد حدثت من قبل، وهي تحدث من حولهم في عمليات الإحياء المتجددة التي لا تنتهي [الآيات ١ ـ ٥].

ويلفت القرآن نظر الناس الى آثار قدرة الله سبحانه، فالسماء سقف مرفوع؛ والأرض بساط تحفظه

الجبال، وتجري فيه الأنهار، وينمو فيه صنوف النبات؛ والمطر ينزل فيبعث البركة والنماء، ويُنْبت الحب والنخيل والأعناب، ويبعث الحياة في الزرع والأرض؛ وبمثل هذه القدرة العالية يحيي الله الموتى ويبعثهم من قبورهم، بعد جمْع ما تفرّق من أجزائهم الأصلية [الآيات ٦ ـ ١١]. ويلفت القرآن النظر الى عبرة التاريخ، ويذكّر الناس بما أصاب قوم نوح من الغرق، وما أصاب المكذّبين من الوعيد والهلاك، ومنهم أصحاب الرَّسّ (والرَّسّ هي البئر)؛ وأصحاب الرَّسّ بقية من ثَمُود، كانت لهم بئر فكذبوا نبيّهم ودسّوه في البئر؛ وأصحاب الأيكة: وهم قوم شُعَيب (ع)، والأيكة: الغَيْضَة، وهي الشجر الملتفّ الكثيف.

وقوم تُبّعٍ، وتُبّعٌ لَقَبٌ لملوكِ حِمْيَر باليمن.

إنّ هؤلاء الأقوام أنكروا الرسالة الإلهية، وكذّبوا رسل الله إليهم، فاستحقّوا عذاب السماء، وهذا العذاب يصيب كلَّ مكذّب بالله وأنبيائه [الآيات ١٢ ـ ١٥].

رقابة الله جلَّ وعلا

خلق الله الإنسان بيده، ونفخ فيه من روحه، وصانع الآلة أدرى بتركيبها وأسرارها، فهو سبحانه عليم بخفايا الصدور، مطّلع على هواجس النفوس، قريب من عباده لا يغيب عنهم أينما كانوا، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة؛ وهناك ملائكة تسجّل أعمال العباد وتفوض حقيقة المراد منها الى الله تعالى. ولقد عرفنا نحن البشر وسائل للتسجيل، تسجل الحركة والنبرة، كالأشرطة الناطقة وأشرطة السينما والتلفزيون، فليس ببعيد على الله أن يجعل من ملائكته شهود عيان، يُحْصُون على الانسان أقواله وأفعاله، بالحق والعدل: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار].

مشاهد القيامة

تحدّثت السورة عن البعث والحشر، ولَفْت الأنظار إلى آثار الله سبحانه في الآفاق، وإلى سننه جلَّ وعلا في التاريخ، والى عجيب صنعه في حنايا البشرية. ومن إعجاز القرآن: أنه ينتقل بالمشاهد من الماضي إلى الحاضر، ويُلَوّن في أسلوب العرض، ويعرّض

النفس الانسانية لمختلف المؤثرات، رغبة الهداية والإصلاح. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾ [طه].

وقد عرضت سورة «ق» لمشاهد القيامة، وفي مقدّمتها حضور سكرة الموت فجأة، بلا مقدّمات، والموت طالب لا يَمَلُّ الطَّلَب، ولا يبطئ الخطى، ولا يُخلف الميعاد: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾ أي تهرب وتفزع، والآن تعلم أنه حق لا مهرب منه ولا مفرّ. وتنتقل الآيات من سكرة الموت الى وهلة الحشر وهول الحساب، وهي مشاهد تزلزل الكبرياء الجامح، وتحارب الغرور والطغيان، وتدعو للتقى والإيمان. فملَك الموت ينفخ في الصور، فيقوم الناس من القبور ويهرع الجميع الى الحساب، وتأتي كلّ نفس ومعها سائق يسوقها، وشاهد يشهد عليها، وقد يكونان هما الملَكين الكاتبين الحافظين لها في الدنيا، وقد يكونان غيرهما؛ والأول أرجح. عندئذ يتيقّن المُنْكِر، ويرى البعث والحشر والجزاء مشاهدَ أمامه؛ ينظر إليها ببصر حديد نافذ، لا يحجبه حجاب من الغفلة أو التهاون. [الآيات ١٩ ـ ٢٢].

ويشتدُ غضب الجبّار على العصاة المعاندين، فيأمر الله الملكين السائق والشهيد أن يُلْقيا في النار كلَّ كفّارٍ عنيد، مناعٍ للخير متجاوزٍ للحدود، شاكٌ في الدّين، قد جعل مع الله إلٰهاً آخر، فاستحقّ العذاب الشديد.

ويشتدّ الخصام بين الشيطان وأتباعه من العصاة، يحاول كلٌ أن يتنصّل من تَبِعَة جرائمه، وينتهي الحوار بين المجرمين بظهور جهنّم تتلمّظ غيظاً على مَنْ عَصَا الله، ويُلْقَى فيها العصاة، ولكنها تزداد نهماً وشوقاً لعقاب المخالفين، وتقول في كِظَّةِ[1] الأكولِ النَهِم، كما ورد في التنزيل: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾.

وعلى الضفة الأخرى من هذا الهول، مشهد آخر وديع أليف رضيٌ جميل. إنه مشهد الجنّة تَقْرُبُ مِنَ المتّقين، حتّى تتراءى لهم من قريب، مع الترحيب والتكريم [الآيات ٣١ ـ ٣٥].

---

(١) الكِظّة: البِطْنَة.

ختام السورة

في الآيات الأخيرة من السورة [٣٨ ـ ٤٥]، نجد ختاماً مؤكداً للمعاني السابقة، متدثراً إيقاعاً سريعاً، فيه لمسة التاريخ ومصارع الغابرين، وفيه لمسة المكمون المفتوح، وفيه لمسة البعث والحشر في مشهد جديد، ومع هذه اللمسات التوجيه الموحي للمشاعر والقلوب. ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾ وطلوع الشمس وغروبها، ومشهد الليل الذي يَعْقُب الغروب، كلّها ظواهر مرتبطة بالسموات والأرض؛ والقرآن يُرجِع اليها التسبيح والحمد والسجود، ويضم إليها الصبر والأمل في الله القويّ القادر، فعليك يا محمّد أن تبلّغ القرآن للناس، علّهم يتّعظون أو يخافون: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ وفي ذلك تسلية للرسول (ص)، وتثبيت لفؤاده، وتهديد ووعيد للعصاة والكافرين.

أهداف السورة إجمالا

قال الفيروزآبادي: مقصود سورة «ق»:

إثبات النبوة للرسول (ص) وبيان حجّة التوحيد؛ والإخبار عن إهلاك القرون الماضية؛ وعلم الحق تعالى بضمائر الخلق وأسرارهم؛ وذكْر الملائكة الموكلين بالخلق المشرفين على أقوالهم؛ وذكْر بعث القيامة، وذلّ العصاة يومئذٍ؛ ومناظرة المنكرين بعضهم بعضاً في ذلك اليوم؛ وتغيّظ الجحيم على أهله، وتشرُّف الجنّة بأهلها؛ والخبر عن تخليق السماء والأرض، وذكر نداء إسرافيل (ع) بنفخه الصور، وتكليف الرسول (ص) أن يعظ الخلق بالقرآن المجيد.

ترابط الآيات في سورة «ق»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة «ق» بعد سورة المُرسَلات، ونزلت سورة المرسلات بعد تسع آيات من سورة النجم، ونزلت سورة النجم بعد الهجرة الأولى للحبشة، وكانت هذه الهجرة في السنة السابعة من البعثة؛ فيكون نزول سورة «ق» في ذلك التاريخ أيضاً، وتكون من السور التي نزلت فيما بين الهجرة الى الحبشة والإسراء. وقد سُميت هذه السورة بهذا الاسم لابتدائها بالقسم به، وتبلغ آياتها خمساً واربعين آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السورة إنذار المشركين بعذاب الدنيا والآخرة، وإثبات ذلك بالدليل مرّة وبالترهيب أخرى؛ وهو يعود بهذا إلى سياق السور السابقة لسور «محمد» و«الفتح» و«الحُجُرات». وقد ذكرت هذه السور الثلاث في مواضعها للمناسبات السابقة؛ فلما انتهى منها عاد السياق الى ما كان عليه قبلها، وللفصل بينها، بذلك، فائدته في تنويع الأسلوب، وتجديد نشاط السامع.

إثبات الإنذار بالعذاب الآيات [١ ـ ٣٨]

قال الله تعالى: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾ فأقسم على أن النبي(ص) بُعِثَ لينذرهم

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجمايز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

بعذابه، وذَكَر أنهم عجبوا أن يجيئهم منذر منهم، وأن يبعثوا لذلك بعد أن يصيروا تراباً وتفرّق أجزاؤهم، وأجاب سبحانه عن هذا بأنه يعلم ما تفرّق من أجزائهم في الأرض فيقْدِرُ على جمعها، وكذلك يعلم أعمالهم، ويحفظها في كتاب عنده ليحاسبهم عليها، ثم أخذ السياق بعد هذا في ذكر آيات الله جلّ جلاله في السماء والأرض، ليعلموا أن من يقدر عليها يقدر على بعثهم وعذابهم؛ وانتقل منه الى ترهيبهم بذكر ما حصل لمن كذّب قبلهم من قوم نوح وأصحاب الرّسّ وغيرهم. ثم عاد السياق الى أخذهم بالدليل، فذكر أنه، سبحانه، لم يَعْيَ بالخلق الأول حتى يَعْيَا عن إعادته؛ وبَيّن الخلق الأول بأن الله جلّت قدرته هو الذي خلق الإنسان، ويعلم ما تُوَسْوِس به نفسه، فلم يتركه سُدَى بل وَكّل به مَلَكينِ يحفظان كل ما يلفظ به؛ فإذا مات وبُعِثَ وجد أقواله وأفعاله محفوظة في كتابهما، وألقِيَ في جهنّم على ما كان منه من كفرٍ ومنْعٍ للخير وغيرهما؛ ثم ذكر السياق بعدَ هذا ما أعده سبحانه لمن خشيه وآمن به، جمعاً بين الترهيب والترغيب؛ ثم ذكّرهم في إطار الترهيب، بمن أهلكه الله قبلهم ممن كان أشدَّ منهم بطشاً، ليعلموا أنه تعالى قادر على إهلاكهم وبعثهم بعد موتهم؛ والى ذكر خلقه السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام من غير أن يمسّه لُغوب، ليستدلوا به على قدرته على ذلك أيضاً؛ ثم ختمت السورة بأمر النبي(ص) بالصبر على تكذيبهم له في ذلك، وأن يستعين على هذا بالتسبيح بحمد ربّه قبل طلوع الشمس وقبل الغروب، ومن الليل وأَدبار السجود؛ ثم أمره أن يستمع يوم ينادي المنادي بما يكذّبون فيه من بعثهم، إيذانا بأنه قريب منهم، ومضى السياق في هذا الى قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾.

مكنونات سورة «ق»(*)

١ـ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ [الآية ٤١].

هو إسْرافيل (ع). أخرجه ابنُ عساكر عن يزيد بن جابر.

قال قتادة: كُنّا نُحَدَّثُ: أنه ينادي من بيت المقدس من الصَّخْرة. أخرجه ابنُ أبي حاتِم[1].

٢ـ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٤١﴾.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِماتِ الأقران في مُبْهَمات القرآن» للسّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) والطبري في «تفسيره» ٢٦/ ١١٤.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

لغة التنزيل في سورة «ق»(*)

١. قال تعالى: ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾.

قوله تعالى: ﴿مَّرِيجٍ ۝٥﴾ أي: مضطرب، يقال: مَرَجَ الخاتم في إصبعه وجَرِجَ.

٢ـ وقال تعالى: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠﴾.

أقول: «النخل»: اسم جمع، يكون جمعاً مؤنثاً، مراعاة لمعناه، كما في هذه الآية بدلالة «باسقات».

وقد يكون مفرداً مؤنثاً، كما في قوله تعالى:

﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ۝١١﴾ [الرحمن].

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾ [الحاقة].

كما يكون مفرداً مذكّراً في قوله سبحانه:

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠﴾ [القمر].

أقول: وليس لنا أن نقول شيئاً في ترجُّح هذه الكلمة بين الإفراد تأنيثاً وتذكيراً، وبين الجمع، إلا اعتبار الناحية التاريخية، [التي أباحت اللغة فيها، مثل هذا الترجّح].

٣ـ وقال تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ۝٢٣﴾.

أي: هذا شيءٌ لديَّ، وفي ملكي مهيأ.

٤ـ وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

لِذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ أي: أصغى.

أقول: وإلقاء السمع، بمعنى الإصغاء، لا نعرفه في العربية المعاصرة، فقد نقول:

أرهف السمع مثلاً.



المعاني اللغوية في سورة «ق»(*)

قال تعالى: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ①﴾ قَسَمٌ على ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ [الآية ٤].

وقال سبحانه: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ③﴾ لم يذكر «انه رجع» وذلك، والله أعلم، لأنه كان على جواب كأنه قيل لهم: إنَّكُم تَرْجِعُونَ. فقالوا: «أإذا كنا تراباً ذلك رجعٌ بعيد».

وقال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ﴾ [الآية ١٥] تقول: لَبَسْتُ عليه لَبْساً.

وقال سبحانه: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ⑰﴾ بذكر أحدهما والاستغناء عن الآخر. فلم يُقلْ: «عن اليمين قعيدٌ وعن الشمال قعيدٌ». ومثل ذلك في قوله جل شأنه ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ [النساء/ ٤]، وقوله سبحانه ﴿يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر/٦٧] بالاستغناء بالواحد عن الجمع.

وقال سبحانه: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ⑯﴾ أي: أَمْلَكُ بِهِ، وأَقْرَبُ إِلَيْهِ في المقدرة عليه.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

لكل سؤال جواب في سورة «ق»(*)

إن قيل: أين جواب القسم في قوله تعالى: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾؟

قلنا: فيه وجوه: أحدها أنه مضمر تقديره: إنهم مبعوثون بعد الموت.

الثاني: أنه قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ [الآية ٤] واللام محذوفة لطول الكلام؛ والتقدير: لقد علمنا كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس].

الثالث: أنه قوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ [الآية ١٨].

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩﴾ وقد أراد به الحَبَّ الحصيدَ، فأضاف الشيء الى نفسه؛ والإضافة تقتضي المغايرة بين المضاف والمضاف إليه؟

قلنا: معناه وحَبَّ الزرع الحصيد، أو النبات الحصيد. الثاني: أن إضافة الشيء الى نفسه جائزة عند اختلاف اللفظين، كما في قوله تعالى﴿حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٩٥﴾ [الواقعة]. و ﴿حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦﴾، و﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ﴾ [الأحقاف/١٦].

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧﴾ ولم يقل قعيدان، وهو وصف للمَلَكين اللذين سبق ذكرهما بقوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ [الآية ١٧]؟

قلنا: معناه عن اليمين قعيد، وعن الشمال قعيد، إلا أنه حُذِف أحدهما لدلالة المذكور عليه، كما قال الشاعر:

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

نحنُ بِمَا عِنْدنا وأنتَ بِمَا
عِنْدَك رَاضٍ والرأيُ مختلِفُ

وقال آخر:

رَماني بِأمرٍ كنتُ منهُ ووالدي
بَريئاً وَمِنْ أجْلِ الطويِّ رَماني

الثاني: أنّ فعيلاً يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم]. وقيل إنّما لم يقل قعيدان، رعاية لفواصل السورة.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿أَلْقِيَا﴾ [الآية ٢٤] والخطاب لواحد، وهو مالك خازن النار؟

قلنا: فيه وجوه: أحدها: ما قاله المبرّد أن تثنية الفاعل أقيمت مقام تثنية الفعل للتأكيد باتحادهما حكماً، كأنه قال ألق ألق، ونظيره قول أمرئ القيس:

قِفَا نَبْكِ: أي قف قف. الثاني: أن العرب كثيراً ما يرافق الرجلَ منهم اثنان، فكثر على ألسنتهم خطاب الاثنين فقالوا: خليليّ وصاحبيّ، وقفا، واسمدا، وعوجا ونحو ذلك؛ قال الفراء: سمعت ذلك من العرب كثيراً، قال وأنشدني بعضهم:

فقلتُ لِصاحِبِي لا تحبِسانا
بِنَزْعِ أصُولِهِ واجتزْ شيحا

فقال لا تحبسانا والخطاب لواحد، بدليل قوله لصاحِبِي قال: وأنشدني أبو ثور:

فَإنْ تَزجُرَاني يابْنَ عفانَ أنْزَجِرْ
وَإنْ تَدَعاني أحْمِ عِرْضاً مُمَنّعا

وقال امرؤ القيس:

خَلِيليَّ مُرّا بيَ على أمّ جُنْدُبِ
نقضّي لُباناتِ الفؤادِ المعذّبِ

ثم قال:

ألَم تَرَ أني كُلّمَا جئتُ طارِقاً
وَجَدْتُ بِهَا طِيباً وَإنْ لَم تَطيَّبِ

الثالث: أنه أمرٌ للملكين، اللذين سبق ذكرهما، بقوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ ولم يقل غير بعيدة، وهو وصف للجنة؟

قلنا: لأنه على زنة المصادر كالزّبير والصّلِيل، والمصادر يستوي في الوصف بها المذكّر والمؤنث، أو على حذف الموصوف: أي مكاناً غير بعيد،

وكلا الجوابين للزمخشري، رحمهُ الله تعالى.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله تعالى: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ بعد قوله سبحانه: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾ [الآية ٣١] بمعنى قربت؟

قلنا: فائدته التأكيد، كقولهم: هو قريب غير بعيد، وعزيز غير ذليل.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [الآية ٣٧] وكل إنسان له قلب، بل كل حيوان؟

قلنا: المراد بالقلب هنا العقل، كذا قاله ابن عباس رضِيَ الله تعالى عنهما. قال ابن قتيبة: لمّا كان القلب موضعاً للعقل كنّي به عنه. الثاني: أنّ المراد لمن كان له قلب واعٍ؛ لأن من لا يعي قلبه، فكأنه لا قلبَ له؛ ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف/ ١٧٩].



المعاني المجازية في سورة «ق»(*)

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾. أراد سبحانه أنه يعلم غيب الإنسان ووساوس إضماره، ونَجِيَّ أسراره. فكأنه، باستبطانه ذلك منه، أقرب إليه من وريده. لأن العالم بخفايا قلبه، أقرب إليه من عروقه وعَصَبِهِ.

وليس القُرْب هٰهنا من جهة المسافة والمساحة، ولكن من جهة العلم والإحاطة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾ استعارة. والمراد بسَكْرة الموت هٰهنا: الكَرْبُ الذي يتغشّى المُحتَضَر عند الموت، فيفقد له تمييزه، ويفارق معه معقوله. فشَبَّه تعالى ذلك بالسُّكرة من الشراب، إلا أنّ هذه السَّكرة مؤلمة.

وقولُه تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما أن يكون جاءت بالحقّ من أمر الآخرة، حتى عَرَفه الإنسان اضطراراً، ورآه جِهاراً. والآخر أن يكون المراد ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ هٰهنا أي بالموت، الذي هو الحقّ.

وفي قوله سبحانه: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ استعارة، والمراد بها ما يراه الإنسان عند زوال التكليف عنه، مِنْ أعلام السّاعة، وأشراط القيامة، فتزول عنه اعتراضات الشكوك، ومشْتبهات الأمور، يصدِّق بما كَذَّب، ويُقِرُّ بما جَحَد، ويكون كأنّه قد نَفَذ

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

بَصَرُه بعد وقوف، وأحدَّ بعد كَلالٍ ونُبُوّ. فهذا معنى قوله سبحانه: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ استعارة: لأن الخطاب للنار والجواب منها، في الحقيقة لا يصحان. وإنما المراد - والله أعلم - أنها في ما ظهر من امتلائها، وَبَانَ من اغتصاصها بأهلها، بمنزلة الناطقة بأنه لا مَزِيدَ فيها، ولا سَعَة عندها. وذلك كقول الشاعر:

امتلأ الحوض وقال قَطْني
مهلاً رُوَيْداً قد ملأتَ بَطْني

ولم يكن هناك قول من الحوض على الحقيقة، ولكن المعنى أن ما ظهر من امتلائه في تلك الحال، جارٍ مَجْرى القول منه؛ فأقام تعالى الأمرَ المدرَكَ بالعين، مُقَامَ القول المسموع بالأذن.

وقيل: المعنى أنّا نقول لخزَنَةِ جهنَّمَ هذا القول، ويكونُ الجوابُ منهم على حدّ الخطاب. ويكون ذلك من قبيل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف/٨٢] بإسقاط المضاف وإقامة المضاف إليه مُقَامه. وذلك كقولهم: يا خيل الله اركبي. والمراد يا رجالَ الله اركبي.

وعلى القول الأول، يكون مخرج هذا القول لجهنّم على طريق التقرير، لاستخراج الجواب بظاهر الحال، لا على طريق الاستفهام والاستعلام. إذ كان الله سبحانه قد عَلِمَ امتلاءها قبْل أن يَظهر ذلك فيها. وإنما قال سبحانه هذا الكلام ليعلم الخلائقُ صحّةَ وَعْده، إذ يقول تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود]. والوجه في قوله تعالى في الحكاية عن جهنم: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ بمعنى لا مِن مَزِيدٍ فيَّ. وليس ذلك على طريق طلب الزيادة، وهذا معروف في الكلام. ومثله قوله (ص): «وَهَلْ تَرَكَ عَقِيل لنا مِنْ دَارٍ؟»[1]، أي ما ترك لنا داراً.

وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِي

---

(١) قاله عليه الصلاة والسلام حين فتح مكة. فقد مضى الزبير بن العوام برايته حتى ركَزها عند قبة رسول الله، وكان معه أم سلمة وميمونة رضي الله عنهما، وقيل: يا رسول الله! ألا تنزل منزلك من الشعب؟ فقال: وهل ترك لنا عقيل منزلاً؟ وكان عقيل بن أبي طالب قد باع منزل رسول الله (ص) ومنزل إخوته. والرجال والنساء بمكّة. فقيل: يا رسول الله ! فانزل في بعض بيوت مكة في غير منازلك، فقال: لا أدخل البيوت! فلم يزل مضطرباً بالحَجُون [وهو جبلٌ بمكّة] لم يدخل بيتاً، وكان يأتي المسجد من الحَجُونِ لكلّ صلاة. انظر الخبر في «إمتاع الأسماع» للمقريزي المؤرخ، جـ ١ ص ٣٨١.

﴿ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ استعارة مضى نظيرٌ لها في ما تقدَّمَ. والمعنى أنه بَالَغَ في الإصغَاءِ الى الذِّكْرَى، وأشْهَدَها قلْبَه؛ فكان كالمُلْقِي إليها سَمْعَه، دُنوّاً من سماعِها، ومَيْلاً الى قائلها.

والمراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [الآية ٣٧] أي عَقْلٌ ولُبٌّ. ويعبّر عنهما بالقلب، لأنهما يكونان بالقلب. أو يكون المعني: لمن كان به قلب ينتفع به. لأنّ من القلوب مالا يُنْتَفَعُ بِهِ، إذا كان مائلاً إلى الغَيِّ، ومنصرفاً عن الرُّشد.




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفهـــرس

سورة «غافر»

المبحث الأول

المبحث الثاني

سورة «الشورى»

سورة «الزخرف»

سورة «محمد» (ص)

سورة «الحجرات»

سورة «ق»


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

